حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

خلل في حياتنا

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

رقم الإيداع
١٦٧٩٣/ ٢٠٠٥

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

خلل في حياتنا

خالد أبو الفتوح

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه . . . أما بعد:

فهذه أوراق في بعض الجوانب التربوية والدعوية، من خلال معالجة ـ من منظور جديد ـ لأثر بعض التيارات الفكرية وخصائص بعض الفِرَق الإسلامية في حياتنا المعاصرة.

وجدير بالملاحظة أني عندما بدأت كتابة هذه الأوراق كنت أنوي إخراجها في قالب مقال للنشر في إحدى الدوريات الصحفية، ولكن البحث امتد فيها وتوسع بعض الشيء بما لا يناسب مطبوعة دورية، فرأيت إخراجها في صورة كتيب أو رسالة؛ لذلك فقد تجمع مادتها بين الأسلوب الصحفي الخفيف والمنهج البحثي التحليلي، وهذا ما سيلاحظه القارئ في أكثر من موضع.

كما سيلاحظ القارئ في بعض المواضع أسلوبًا مختلفًا بعض الشيء عما ألفه في طريقة الاستدلال بالنصوص، وذلك لأن الموضوع المعالَج ـ في قدر كبير منه ـ له علاقة بنواحٍ نفسية أو سلوكية، وهي مجالات لم يحفل بها معظم علمائنا القدامى ولم تأخذ حظها من العناية اللائقة من علمائنا المعاصرين، رغم ثراء هذه النصوص بالإشارات والفوائد التي تحويها ثناياها في هذه المجالات، ولذا: لم أجد بدّاً من التعامل المباشر مع النصوص ـ وفق القواعد المعتبرة ـ لاستخلاص بعض هذه الإشارات والفوائد والاستفادة منها في موضوعنا، وقد حاولت قدر جهدي استعراض ما قاله أو أشار إليه أي عالم في شرحه للنصوص التي لها علاقة بموضوعنا قبل أن أخرج بما يمكن تسميته (انطباعات) ـ إذا أبيتَ أن تسميها (استنباطات) ـ من هذه النصوص حول الموضوعات محل النقاش في هذه الرسالة.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

وهذا ما جعل المحور الثاني من هذه الرسالة أطول من المحور الأول، ولم يكن ذلك مقصوداً لذاته، وإنما كان لثراء المحور الثاني بالنصوص والمعاني والتفاصيل بما لم يتحقق للمحور الأول، ولا أعتقد أن ذلك يعيب البحث فنياً؛ فليس بالضرورة تساوي أو تقارب حجم كل محور مع الآخر، ما دام أنه تمت خدمة كل محور بما يوضحه ويبين الجوانب المتعلقة به.

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أقول: إن ما كان في هذا البحث من صواب وتوفيق فمن الله وحده، أسأل الله (عز وجل) أن ينفع به في الدنيا والآخرة، وما كان فيه من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، أسأله (سبحانه) أن يتجاوزه عني ويغفره لي، كما أسأله (سبحانه وتعالى) أن يرزقنا الإخلاص في القصد والصواب في العمل. . . .

﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [**هود**: ٨٨].

خالد أبو الفتوح

abulfutoh@hotmail.com

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

بين الكلمة والفعل

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

بين الكلمة والفعل

حكت جارة لنا متندرة: أن أحد أقربائها زارهم هو وزوجته الأجنبية (الأوربية)، وأثناء الزيارة والضيافة أبدت زوجته هذه لجارتنا إعجابها بطاقم كاسات كان معروضًا في غرفة الطعام، وتلقائيّاً قالت لها جارتنا: تفضلي، فما كان من هذه الأجنبية إلا أن بدأت في جمع الكاسات بالفعل والبحث عما تحملها فيه، فتعجبت جارتنا من فعلها؛ حيث إنها ما كانت تقصد بـ (تفضلي) إلا كلمة مجاملة لا غير.

لا شك أن اختلاف العادات والتقاليد له أثره على دلالة الكلمات والعبارات، وهو ما يعرف عند الأصوليين بـ (الدلالة العرفية)، ولكن إذا قلنا: إن هناك خطأ ما وقع في هذه الحادثة، فترى ما هو؟ هل هو (عدم لياقة) هذه الأجنبية التي يفتقر قاموس ثقافتها الاجتماعية إلى كلمات مجاملة رقيقة مثل هذه؟ أم هو (عدم إرادة الحقيقة) الذي كسا كلمة جارتنا بدون أن تنتبه لذلك؟.

ضع هذا المشهد بظلاله في ذاكرتك، ثم تأمل معي:

إمام في المسجد يقف قبل صلاة الجماعة ويقول للمأمومين: «استووا»، «تراصوا»، «سدوا الخلل»، «أتموا الصف الأول فالأول»...، ثم: يشرع في الدخول في الصلاة مكبرًا، من غير أن ينظر إلى أثر الكلمات التي قالها ونصيب التعليمات التي أصدرها من التطبيق، وكأنه لا ينتظر أن يكون لكلامه نصيب من العمل والفعل في الواقع.

فالمشاهَد: أن تصرفات المأمومين لا تتوقف غالبًا على صدور كلمات هذا الإمام أو عدم صدورها، أي: إن هذه الكلمات كعدمها في عالم العمل، فلماذا يقولها الإمام إذن ما دام المأمومون سيكونون على الحالة نفسها قبل

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الكلام وبعده؟، وإذا قالها لماذا يرسلها فارغة من المحتوى العملي ولا يتابع تطبيقها الفعلي؟.. هذا في عالم المصلين المفترض أن يكونوا أهل صلاح والتزام.

وفي طرف آخر وشريحة أخرى من الناس: يشتري المدخنون علب الدخان والسجائر وكأنها الطعام والشراب، فإذا ما تفحصتَ علبة الدخان التي يتلهف المدخن على اقتنائها وجدت مكتوبًا عليها بخط واضح: «تحذير صحي: التدخين سبب رئيسي لسرطان وأمراض الرئة وأمراض القلب والشرايين».

بالطبع فإن شركات السجائر لم تكتب هذا التحذير مختارة، ولكنها اضطرت إلى ذلك تحت ضغط المنظمات الصحية العالمية والأنظمة الحكومية، ولكنها حتى بعد كتابة التحذير وإبرازه لم تفقد هذه الشركات سوقًا لها نتيجة كتابة هذا التحذير، وصارت تطبعه وهي مطمئنة إلى رواج منتجاتها السمومية، وكذلك لم تؤثر هذه الكلمات المُمْرِضة بحد ذاتها في المدخنين الذين يشاهدون هذه العبارة مطبوعة على كل علبة سجائر يفتحونها، ومن جهة أخرى: اكتفت الحكومات التي تعي تمامًا دلالة هذه الكلمات، والتي يفترض فيها أنها مسؤولة عن صحة مواطنيها، اكتفت بكتابة هذا التحذير، ثم راحت تجبي الضرائب من المدخنين والشركات لإجراء بحوث وبناء مشافي ـ إن صدقت ـ لدراسة هذه الأمراض المميتة ومعالجة المواطنين من آثار ما حذرتهم منه وقدمته لهم!!.

المعاني نفسها نلاحظها في: أب أو أم يأمر أحدهما أو كلاهما طفلهما أو ينهيانه أو يحذرانه، ثم يدعانه وشأنه، لتنتصر إرادة الطفل وطيشه على كلمات الوالدين الفارغة، التي تتحول إلى مجرد (كلمات جوفاء).. ولوائح إدارية تعسفية أو قوانين تعجيزية حقيقتها أنها (حبر على ورق)، وإن استخدمت فهي مجرد أداة تهديد وإرهاب، وعند الضرورة فالمخارج منها أكثر من ثقوب المنخال.. أو تصريحات سياسية يعرف الداني والقاصي والعامي والمثقف والعدو والصديق أنها (للاستهلاك المحلي).

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

فكيف فَقَدَت الكلمات مدلولها العملي عند جميع هذه الأطراف؟، وإذا كانوا جميعًا يعلمون أن هذه الكلمات بلا جدوى عملية ـ رغم أن معناها يقتضي أن يكون لها هذه الجدوى ـ فلماذا الإصرار على ذكرها؟، وهل أصبح إصدار بضع كلمات (أو بيانات شجب واستنكار) يكفي لإبراء الذمة، حتى ولو تغاضينا عن تنفيذ هذه الكلمات ـ مع توفر مقدرتنا ـ أو شاركنا في مخالفتها؟، أليس الأمر يستحق التأمل؟!.

إن الأمر لا يقف عند هذه الصور التي ذكرناها، إذ يمكن رصد مشاهد عديدة غيرها نعايشها في حياتنا العملية المعاصرة، وكلها تؤكد معنًى واحدًا، وهو: فقدان الكلمة لمصداقيتها، أو عدم إرادة حقيقتها، أو فقدان قيمتها العملية في عالم الواقع.

فهل كانت كذلك وظيفة الكلمات في واقع جيل المسلمين الأول؟ وكيف هي في واقع المجتمعات المعاصرة الأخرى؟.

حتى نتبين مدى الفرق بين الواقع الحالي وواقع الجيل الأول نوضح موقفًا مشتركًا في ظاهره بين الواقعين، ولكن المقابلة بينهما تظهر بونًا شاسعًا في المقصد من وراء الكلمات والسلوك التربوي والعملي معها؛ فالإمام الذي مثَّلنا له في أول المقال ربما استند إلى أنه ورد في السنة النبوية ما يعضد موقفه (الكلامي)، وهذا صحيح جزئياً، ولكن لننظر فيما ورد في السنة لنعلم مدى الفرق: أخرج مسلم وغيره، عن أبي مسعود (رضي الله عنه)، قال: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا [أي: يسويها، ويعدلها] في الصلاة، ويقول: استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم (. . .) قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشد اختلافًا»، وفي لفظ للنسائي، عن البراء بن عازب (رضي الله عنه)، قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلل الصفوف من ناحية إلى ناحية(!)، يمسح مناكبنا وصدورنا(!)، ويقول: لا تختلفوا فتختلف قلوبكم». .

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

فواضح هنا أمران: **الأول**: أن هذه السنة اشتملت على إجراء عملي وإجراء قولي في الآن نفسه، **والثاني**: أنها ليست من العبادات التوقيفية المحضة التي أُمِرنا بفعلها من غير معرفة حكمتها ومقصدها، فهي ليست مثلاً كقراءة الحروف المقطعة في أول سور القرآن، أو كالتيمم للصلاة عند فقد الماء، بل وضحت السنة أن هناك مقصوداً أهم من وراء هذين الإجراءين، وهو: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، وهذا ما فهمه الصحابي الجليل وأشار إليه بقوله: «فأنتم اليوم أشد اختلافًا»، فالمقصود: توحيد الظواهر لتوحيد البواطن، وهذا ما ذكره النووي في شرحه للحديث: «لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن[1]».

في الواقع الحالي: لم نلحظ القصد إلى الأمر الثاني بأي صورة من الصور تقريبًا، ولكننا نناقش تطبيق الأمر الأول الذي كثيرًا ما يحدث في واقعنا: لماذا انفصلت السنة العملية عن السنة القولية في تطبيقنا؟، وعندما انفصلت، لماذا اختار معظم أئمتنا القول وأهدروا العمل ولم يكن العكس؟، وعندما فُقد المقصود الأعظم وغاب الإجراء العملي الذي يُعد وسيلة الوصول إلى هذا المقصود، والذي هو أيضًا مقتضى الإجراء القولي.. لماذا كان الإصرار على الاستمرار في ترديد قول ليس وراءه عمل ولا يؤدي إلى مقصوده؟... أليست هذه تساؤلات تستحق التأمل؟!.

والشواهد تتضافر في سلوك الرعيل الأول من المسلمين على خلوهم من هذه الآفة وفهمهم الرائد لدور الكلمة والمقصد من ورائها والتبعات المطلوبة منهم بعدها: فقد أخرج الإمام أحمد[2]، عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال:

---

(١) سيأتي الحديث عن علاقة الظاهر بالباطن في المحور الثاني ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(٢) وابن أبي شيبة، وابن جرير، وغيرهم، وحسن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند، ح/ ٢٣٥٢٩ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

«حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ: أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعُلِّمنا العلم والعمل».

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما)، قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم قال: لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدَّقَل [أردأ التمر وأيبسه]»[1].

وحتى لو كان هذا القول علمًا ـ منقطعًا عن العمل ـ فإن هذا العلم يكون مذمومًا أيضًا في نظر أئمة الهدى؛ يقول الإمام الشاطبي (رحمه الله): «... وقال الحسن: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم؛ فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعتَ قولاً حسنًا فَرُوَيدًا بصاحبه: فإن وافق قولُه عملَه فنِعْمَ ونِعمة عين، وقال ابن مسعود: إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعلُه قولَه فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه، وقال الثوري: إنما يطلب الحديث ليتقى به الله (عز وجل)، فلذلك فُضِّل على غيره من العلوم، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء، وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد قال: أدركت الناس وما يعجبهم القول؛ إنما يعجبهم العمل، والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصودًا لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به»[2].

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في مستدركه.
(٢) الموافقات، للشاطبي، جـ١، ص٦٥ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

وليست هذه الخاصية في الجدية وارتباط القول بالعمل مقصورة على المسلمين الأوائل، ولكننا نجدها في كل مجتمع جاد يسعى لتحقيق هدف ـ أيّاً كان ـ ويحترم ذاته، فمشركو العرب الأوائل لم يكونوا بهذا الانفصام، لذا: كانوا غالبًا صادقين في الكفر وصادقين بعد الإيمان، وكانوا أقوياء في كفرهم وأشداء بعد إيمانهم، كانوا واضحين مع أنفسهم ومع الآخرين، كانوا جادين يعلمون تمامًا أن الكلمة لا تُطلب إلا لآثار ومقتضيات، ومن ثم: لا تخرج منهم إلا إذا كانوا على استعداد تام لقبول هذه الآثار والمقتضيات والإذعان لها، فكان إصرارهم على رفض (كلمة) الشهادتين، ثم فداؤهم لها وإقامتهم لمقتضياتها العملية بعد قبولها.. يقول الله (تعالى): ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ [**الصافات**: ٣٥ – ٣٦]، فعلموا أن القول لا بد أن يعقبه أثر في واقعهم ﴿**لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا**﴾، وأخرج البخاري ومسلم: «لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فكيف وقع هذا المطلب على صناديد قريش؟ وكيف وعوا المقصود بهذه (الكلمة)؟: «.. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب (أترغب عن ملة عبد المطلب)»، «فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله»، فما الذي كان يضيره ويضير صناديد قريش خروج (كلمة) يقولها رجل على فراش الموت ويمضي لمصيره، رغم مناصرته العملية طوال سنين للداعي إلى هذه الكلمة؟.

وحتى النفاق الأكبر الذي ظهر في مرحلة قوة الإسلام وسيادته في المدينة لم يكن بهذه الصورة المعاصرة من الانفصام؛ لأن أساس النفاق هو مخالفة

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الباطن للظاهر، وليس خلو الأقوال من مقاصدها الظاهرة؛ فالمنافقون في هذا العهد كانوا يكذبون في ادعائهم أن أقوالهم وأفعالهم ـ التي نطقوا بها، وأظهروها ـ مطابقةٌ لما يضمرونه في قلوبهم: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون: ١]، ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾ [المائدة: ٤١]، وهو ما كان يصعب عليهم التزامه دائمًا، فكانت هذه البواطن تظهر أحيانًا في أقوال وأفعال مختلفة عما يعلنونه، فيُعرف صاحبها حينها ويكون منافقًا (معلوم النفاق)، فالمنافقون اتخذوا النفاق وسيلة كيد للإيمان وأهله وليس طريقة حياة مائعة وباهتة اختارها أصحابها وعاشوا بها ظانين أنها حياة جادة وسوية، على النحو الذي أوردنا أمثلة منه في أول كلامنا، فالفارق بين حالة المنافقين وما نتحدث فيه: أن حقيقة النفاق الأساسية ـ في جانب الأقوال ـ تتمثل في عدم تصديق الأقوال الظاهرة للبواطن، أما ما نحن بصدده فهو يتعلق بعدم وجود الإرادة والقصد لما يقتضيه القول ابتداءً، وليس إبطان القصد لما يخالف مقتضى الأقوال ـ كما هو في حالة النفاق ـ.

لقد كان العرب الأوائل يعرفون الوظيفة الحقيقية للغة: أنها أداة للتفكير وللتواصل بين البشر، وللتعبير عن المشاعر والأفكار والمعتقدات، وليست مجرد أصوات عبثية لا حظَّ لها من الواقع، حتى إنهم كانوا يطلقون لفظ (القول) على الرأي والمعتقد؛ لأنه لا يظهر إلا بالقول، ولا يطلقون لفظ (المعتقد) على القول، فالقول معبِّر ودال على معنًى يُقصد وعقيدة تُضمر وليس مجرد صوت يخرج من الجوف، وعندما يكون لهذا المعنى وهذه العقيدة تبعات ومقتضيات في عالم الواقع فالأصل أن يكون المتكلم بهذه الكلمات حريصًا وملتزمًا بتنفيذ هذه التبعات والمقتضيات وجادًا في إتيانها، حتى ولو قصَّر في تحقيقها الفعلي نتيجة ضعفه الذاتي أو صعوبة الظروف المحيطة به، وليس نتيجة ليونة موقفه

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

وتذبذب إرادته لمعاني هذه الكلمات.

كما إن خيار مجمل هؤلاء العرب الأوائل ـ مشركين أو مسلمين ـ كان اتخاذ الصدق في القول والفعل بابًا إلى الجدية في الحياة، وهذا ما أكد على طلبه القرآن الكريم كما في قوله (تعالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢].

وكذلك نجد في المجتمعات الأخرى المعاصرة التي لم تصب بهذا الداء، فبعد أن كانت هذه المجتمعات غارقة فيما سبق في الجدل (البيزنطي)[1]، نرى الآن فيها كثرة الفعل، والتركيز على الإنجاز، والاهتمام بالإجراءات العملية ـ بحسب اهتماماتها وأهدافها ـ، وحتى عندما يكون الكلام هو مجال العمل فإنه حينئذ يخضع لأهداف ومقاصد وتخطيط؛ لبلوغ هدفه وتحقيق أقصى فاعلية من ورائه، وغالبًا ما توظف الكلمات لتحقيق مهام عملية؛ فإعلام هذه المجتمعات هادف حتى وهو فاسد ومفسد (حيث الإفساد ـ من وجهة نظرنا ـ هدف وليس تفلتًا وارتجالاً)، بل إن ما يظهر لبعضنا أنه مجرد لهو وتسلية له عندهم أصوله ومقاصده؛ فالكوميديا والتراجيديا والدراما لها أصول منبثقة من نظرة فلسفية إلى النفس الإنسانية والحياة، وكيفية التعامل معها واستخراج كوابتها أو ترويحها أو معالجتها وحل عقدها و(تطهيرها).. ولا نناقش هنا هذه النظرة وصحتها أو خطئها، ولكن نناقش ضرورة أن يستحضر الإنسان مقصدًا من وراء الكلمات وأن يكون جاداً في تحقيق هذا المقصد في عالم الواقع.. وهذا ما يفعلونه.

فما الذي حدث لنا بعد أن كنا شامة في الجدية والعمل؟.. لا شك أن كل مجتمع يمكن أن يوجد فيه الجادون والمتميعون، ولكن الجدية والصدق هي إحدى سمات المجتمع الإسلامي عندما تكون التربية الإسلامية الصحيحة هي التي توجه أفراده، وكلما بعُد المجتمع عن هذه التربية أثرت على أفراده العوامل

(١) نسبة إلى مدينة بيزنطية، والجدل البيزنطي يضرب به المثل في الجدال الذي لا فائدة منه.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

البيئية والفكرية والاجتماعية السائدة فيه، وأرى أن من أهم هذه العوامل أنه في بداية دخول الأمة مرحلة الترف الفكري ظهرت جرثومة مذهب الإرجاء الذي يفصل العمل عن القول ويجعله خاويًا من مضمونه الحقيقي، ففقدان الكلمة لمصداقيتها، أو عدم إرادة حقيقتها، أو فقدان قيمتها العملية في عالم الواقع ـ كما مثَّلنا له سابقًا ـ هو بالضبط حقيقة (الإرجاء)، ولكنه هنا ليس متمثلاً في عقيدة مذهبية، بل في سلوكيات حياتية.

فحقيقة الإرجاء ـ من غير دخول في تفاصيل تخصصية ـ تتمثل في انفصال القول عن العمل، أو عدم وجود أثر فعلي للكلمات في عالم الواقع، حيث لا تكون كلمات الشهادتين ـ خاصة عند غلاة المرجئة ـ إلا أصواتًا تصدر عن صاحبها[1]، من غير وجود أثر عملي لهذه الكلمات في عالم الواقع، أي: الانفصام بين عالَم الأقوال وعالم الأفعال.

ورغم اضمحلال فرقة المرجئة إلا أن هذه الجرثومة الفكرية انتشرت بين كثير من علماء الأمة راكبة مركب الأشعرية، ثم تسربت لاحقًا من بين دفات

(١) تتفق فرق المرجئة على عدم دخول الأعمال الظاهرة في مسمى الإيمان، ثم يختلفون في حقيقة هذا المسمى، فقالت طائفة منهم: الإيمان فعل القلب دون اللسان، وقالت طائفة أخرى ـ وهم أهل الغلو في الإرجاء ـ: الإيمان فعل اللسان دون القلب، وقال جمهورهم: الإيمان هو فعل القلب واللسان جميعًا، وأصل هذه البدعة: أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، لا يتبعض ولا يتجزأ، ولا يزيد ولا ينقص، ولا يتفاضل، فهو إما أن يثبت كله أو يزول كله، وهذا ما يتفقون فيه مع الطرف الأقصى المقابل لهم (الخوارج)، ولكن المرجئة اكتفت بأن هذا الشيء الذي لا يتبعض ولا يتجزأ هو التصديق والقول، دون الأعمال الظاهرة، بينما أضافت الخوارج إلى التصديق والقول: فعل جميع الواجبات وترك جميع الكبائر ـ على اختلاف طفيف بين فرقهم في ذلك ـ، وعدت كل ذلك حداً أدنى لحقيقة الإيمان. (انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جـ٧، ص١٧١، وص٢٥٧، وص٣٦٣ـ٣٦٤، وص٦٣٧، والفتاوى الكبرى، له أيضًا، جـ٥، ص٨٠، والعقيدة الأصفهانية، له كذلك، ص١٧٥، وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، لأحمد ابن إبراهيم بن عيسى، جـ٢، ص١٣٩، ومقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري، ص٨٦، والإيمان، لابن مندة، جـ١، ص٣٣١).

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

كتب علم (الكلام) لتتحول إلى أنماط سلوكية ومظاهر حياتية تسري بين أفراد الأمة، حتى بين من لا يعرفون شيئًا عن هذا المذهب، بل بين من لا ينتسبون أصلاً إلى ملتنا ممن يعيشون بيننا، بل ليس من المستغرب أن تجد في بيئتنا أناسًا ممن يحملون أفكار الخوارج ـ افتراضيّاً ـ، التي تقع ـ فكريّاً ـ في الطرف الآخر من المذهب الإرجائي، وهم يمارسون السلوكيات الإرجائية المشار إلى أمثلة منها آنفًا.

وقد أثر ذلك في نمط شخصية الأفراد، فأصبح كثير منهم يحس بأن مسؤوليته الشخصية تنتهي عند خروج كلمات من فمه، حتى ولو كانت هذه الكلمات فارغة المدلول أو غلب على ظنه عدم تحقيقها في الواقع رغم قدرته على بذل جهد لخروجها إلى عالم الفعل، فهو يرى أنه بخروج كلماته قد أدى المطلوب منه وأراح ضميره.

خطأ يسير وخطر عظيم:

رغم أن كثيرًا من العلماء عَدُّوا خطأ المرجئة الفكري يسيرًا ـ نظريّاً ـ إلا أنهم حذروا من عِظَم خطورة هذا الخطأ وآثاره السيئة على سلوك الفرد والأمة.

فشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) يعد بدعة الإرجاء أخف البدع ـ من الناحية النظرية ـ فيقول: «... وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام: منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم، فيبدأ بالخوارج، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه، فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ـ كما فعله كثير من أصحاب أحمد (رضي الله عنه): كعبد الله ابنه ونحوه، وكالخلال وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما، وكأبي الفرج المقدسي ـ، وكلا الطائفتين تختم بالجهمية؛ لأنهم أغلظ البدع، وكالبخاري في صحيحه، فإنه بدأ بـ (كتاب الإيمان والرد على المرجئة) ، وختمه بـ (كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية)..»[1].

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٣، ص٥٠، وانظر: ص٣٩، وجـ٣، ص٣٥٧ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

إلا إن ابن تيمية (رحمه الله) يقول في موضع آخر: «. . . وهذه الشبهة التي أوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن إسلامه وإيمانه، ولهذا دخل في (إرجاء الفقهاء)[1] جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين؛ ولهذا لم يكفِّر أحد من السلف أحدًا من (مرجئة الفقهاء)، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال لا من بدع العقائد؛ فإن كثيرًا من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم، وإلى ظهور الفسق؛ فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببًا لخطأ عظيم في العقائد والأعمال.

فلهذا عظم القول في ذم (الإرجاء)، حتى قال إبراهيم النخعي: لَفتنتهم (يعني: المرجئة) أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة [غلاة الخوارج]، وقال الزهري: ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء، وقال الأوزاعي: كان يحيى بن أبي كثير وقتادة يقولان: ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء، وقال شريك القاضي ـ وذكر المرجئة، فقال ـ: هم أخبث قوم؛ حسبك بالرافضة خبثًا، ولكن المرجئة يكذبون على الله، وقال سفيان الثوري: تَرَكَت المرجئةُ الإسلامَ أرقَّ من ثوب سابري[2]»[3].

فتأثير الفكر الإرجائي السلبي لم يقتصر على سلوك الأفراد فقط، بل تعداه إلى المجتمعات والشعوب، وإلى الأمة باعتبارها كيانًا حضارياً متميزًا وفعالاً؛ فإضافة إلى أن انتشار هذا السلوك جعل التعايش مع الفكر الإرجائي العقدي (انفصال العمل عن الإيمان) غير مستغرب ولا مستهجن بين معظم جموع الأمة

(١) (مرجئة الفقهاء) عند ابن تيمية (رحمه الله) هم أقل الفرق إرجاءً وأقربهم إلى أهل السنة.

(٢) السَّابِرِيُّ من الثيابِ: الرقيقة الخفيفة، حتى إنه يستشف ما وراءها، منسوبة إلى سابور: مدينة بفارس.

(٣) مجموع الفتاوى، جـ٧، ص٣٩٤ـ ٣٩٥ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

حتى ترسخ في وجدانها عبر منظومة من الأمثال والمأثورات الشعبية.. إضافة إلى ذلك فإنه عندما انفصل القول عن العمل، وأصبحت الكلمات هي ميدان العمل، كثر إنتاج أمتنا من الكلام وقل عملها في الدين والدنيا، وكثرت صور النفاق السياسي والنفاق الاجتماعي، حتى تحولت أمة العرب إلى (ظاهرة صوتية) على حد تعبير أحد أبناء هذه الظاهرة.

وقد استغل الاستعمار القديم والحديث وأذنابه أثر هذا الفكر لترسيخ وجوده وتنفيذ مخططاته بمكر ودهاء، وفي الوقت نفسه: بنعومة وتجنب المصادمة ـ أو تقليلها ـ.

وفي هذا الصدد نلاحظ أن الحملة الفرنسية على مصر عام (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) ابتدأت من أول يوم بمحاولة التلبيس على الجماهير باستغلال أثر هذا الفكر، أي: بإصدار كلام مجرد من حقيقته ولا يصدقه العمل؛ لمحاولة استمالة الجماهير وتخدير مشاعرها العدائية تجاهها، حيث ادعى نابليون تحلِّيه هو وجنوده بحلة الإسلام والمبادئ والأهداف السامية؛ فقد كان أول منشور دعائي ألقاه نابليون على المصريين متصدراً بما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه»، وجاء فيه أيضاً: «يا أيها المصريون، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قَدِمْتُ إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله (سبحانه وتعالى) وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا أيضاً لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو (العقل) و(الفضائل) و(العلوم) فقط !!»، «... أيها المشايخ والقضاة والأئمة... قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك: أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا كرسي البابا...»[1].

(١) تاريخ الجبرتي، أحداث شهر محرم، سنة ١٢١٣هـ.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

لقد كان نابليون يحرص في مثل هذه المسائل أن يستعمل دواءً من جنس الداء!، ولما كان نابليون يشخص داء الشعب المصري في تدينه، حيث إن «الأفكار الدينية كانت على الدوام مسيطرة على الشعب المصري في شتى العصور»، كان دواء هذا الداء عنده هو استخدام «لقاح ضد الدين»، فمن نصائحه التي كتبها لكليبر خليفته في مصر: «علينا أن نهدهد التعصب حتى ينام قبل أن نستطيع اقتلاعه»، فسياسة نابليون كانت قائمة على (ترويض) الدين لا مصادمته[1]، ولم يجد نابليون لتنفيذ هذه السياسة أنسب من استغلال أثر الفكر الإرجائي في الأمة، فقد كان هذا الفكر هو الثغرة التي حاول هو ورجال حملته استغلالها لاختراق الفكر والشعور الإسلامي، ويبدو أنه وقواده كانوا يدركون جيدًا أثر الفكر الإرجائي على مشاعر المسلمين ومواقفهم، وقد كانت لجهودهم الاستشراقية باعًا في ذلك الإدراك، وكمثال على ذلك: فقد قضى (فينتور دي بارادي) أربعين سنة يتجول في العالم الإسلامي قبل أن يلتحق بالحملة ويكون أحد كبار مساعدي نابليون[2]، لذا: ليس بمستغرب أن يستغل نابليون وقواده رصيد انفصال القول (أو الشعارات) عن العمل بمهارة واطمئنان، وقد كانوا أيضاً ـ امتداداً لهذه السياسة ـ حريصين على إنفاذ الحج وإقامة الموالد! وإظهار البهجة بأعياد المسلمين واحترام شعائرهم.

* وقد استُغِل أثر هذا الفكر بشكل متكرر في العالم الإسلامي، ولكن ليس بالضرورة في صورة استعمار صريح، وإنما في صورة أشخاص أجانب (رؤوس حربة استعمارية) اتخذوا أسماء إسلامية وتظاهروا بالدخول في الإسلام؛ لإخفاء أهدافهم وما يسعون إليه، وعملوا ـ أو اتُّخِذوا ـ مستشارين لحكام

(١) انظر فيما سبق: بونابرت في مصر، تأليف: ج .كرستوفر هيرولد، ترجمة: فؤاد أندراوس، ص٢٥١ .

(٢) انظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود محمد شاكر، ص١٢٤، ومصر.. ولع فرنسي، لروبير سوليه، ص٣٧ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

المسلمين، ونفذوا من خلالهم ما يصعب تحقيقه من خلال الاستعمار الصريح الواضح، ومن هذه الحالات ـ على سبيل المثال، لا الحصر ـ:

ما حدث في مصر ـ بُعَيْد الحملة الفرنسية ـ عندما عاون الكولونيل الفرنسى جوزيف أنتلم سيف ـ الذي تسمى فيما بعد باسم سليمان باشا ـ (محمد علي باشا) على (إصلاح) البلاد، فنظم الجندية على النظامات الأوروبية[1]، وقد كان واحداً من الذين خدموا في الحروب النابليونية، وعندما فقد الحظوة بوصول لويس الثامن عشر إلى السلطة جاء إلى مصر ليخدم مع محمد علي سنة ١٨١٩م (١٢٣٣هـ) رغم تقاضيه نصف مرتبه من الجيش الفرنسي، وجدير بالذكر أن هذا الشخص هو نفسه جد الملكة نازلي أم الملك فاروق التي سيكون لها دور مهم في التغريب في وقتها.

وفي الجزائر استعان الأمير عبد القادر الجزائري ـ أثناء جهاده الفرنسيين المحتلين! ـ بالأوروبيين من مختلف الجنسيات لتدريب الجيش ولإقامة مصانع للذخيرة، وقرّب بعضهم، وقد اشتهر من بين هؤلاء: المستشرق الفرنسي (!) ليون روش، الذي اتخذه الأمير مستشاراً له بعد أن اعتنق الإسلام، فأقام عنده نحو أربع سنوات، وعندما انقطع الصلح بين الأمير وجيش الاحتلال سنة ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) رفض روش اتباع الأمير في استئناف القتال واعترف له بأنه تظاهر باعتناق الإسلام، ومع ذلك أخلى الأمير سبيله، ثم تبين بعد ذلك أنه كان جاسوساً[2].

وقد تطور هذا السلوك لاحقاً ـ بعد ضعف عقيدة الولاء والبراء ـ إلى عدم الحاجة إلى التسمي بأسماء المسلمين والتظاهر بالدخول في الإسلام، كما رأينا في رجل المخابرات البريطاني الموصوف بصديق العرب المدعو (لورانس العرب)،

(١) انظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٠٥ .

(٢) انظر: د. صلاح العقاد، المغرب العربي ـ دراسات في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة، ص١١٢ .

حُمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

عندما قاد كتائب (الثورة العربية!) الكبرى ضد الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى لحساب بريطانيا، وكما رأينا الجنرال البريطاني جلوب باشا يقود (الجيش العربي!) في حرب فلسطين ١٩٤٨م لحساب اليهود، وغيرهما ممن لعبوا دورًا مشبوهًا ومؤثرًا في مجريات الأحداث في المنطقة.

وإذا كان ذلك واضحًا في المجال السياسي والعسكري ـ كما بينته الأمثلة السابقة ـ فإن الأمر نفسه تستطيع رصده في مجالات التعليم والاجتماع والاقتصاد والقضاء والتشريع... وغيرها من شتى مناحي الحياة المعاصرة.

ولا يقف الأمر عند استغلال أشخاص (أجانب) لأثر الفكر الإرجائي في مجتمعات المسلمين لتحقيق مخططاتهم، بل يتعداه إلى تترس بعض أشخاص (من جلدتنا، ولكن من غير قلوبنا وعقولنا) بالأقوال والشعارات الإسلامية مع خلو أفعالهم من مضمون يصدقها، في الوقت الذي يعملون فيه على تنفيذ مخططات الأعداء نفسها، وربما بمهارة أكبر وتنفيذ أدق، مستغلين أثر الفكر الإرجائي نفسه ليكونوا في مأمن من نقدهم أو رميهم بما يمكن أن يُرمى به (الأجانب)[1]، فنراهم يحادون الله ورسوله، ويُنحُّون شرعه ويبدلون شريعته، ويوالون أعداءه ويعادون أولياءه، ويشيعون الفسق والفجور في مجتمعات المسلمين، وينهبون خيرات بلادهم... ثم يُشيحون في وجوه المنكرين عليهم بكلمات خالية من حقيقة أو بمظاهر خاوية من مضمون، ليتمكنوا من مواصلة

(١) وقد ساعد على ذلك: وجود خلل فكري وانحراف منهجي عند بعض العلماء وبعض العاملين في الحقل الإسلامي، حال بينهم وبين التوازن في الأحكام، وأدى إلى الخلط السيئ بين (الشرعي) و(السياسي) في خطابهم الدعوي، يقول ابن أبي العز الحنفي (رحمه الله)، في معرض ذكره لمسالك الناس في إطلاق أحكام التكفير: «.. فطائفة تقول لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، فتنفي التكفير نفيًا عامًا، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم مَن هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين، وأيضًا: فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًا» (شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٥٥).

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

مسيرتهم الشيطانية في مجتمعاتنا.

إلى جانب ذلك: فقد تحولت بلدان المسلمين ـ بأثر الفكر الإرجائي ـ إلى (بلاد شعارات): «حرية ـ وحدة ـ ديمقراطية ـ علم وإيمان ـ إسلام ـ اشتراكية...»، من غير أن يكون لهذه الشعارات نصيب من الواقع إلا بالقدر الذي يحقق الدجل السياسي المطلوب على الشعوب، أما الجماهير فإنها قنعت بإطلاق عبارات الشجب والاستنكار والإدانة والتنديد كلما حلت بالأمة كارثة أو مصيبة من عدوها، فكان انتشار هذا السلوك، ثم العمل على ترسيخه واستغلاله.. أداة فاعلة لإلهاء الشعوب واستغفالها.

إن فكر الإرجاء والقيم المنبثقة منه يؤديان إلى ليونة ومطاطية في المنطق والسلوك، تقودان إلى ميوعة في الشخصية (الحضارية) للأفراد، تصل إلى حد التيه في الهدف والفقر في العمل، والذوبان في (الآخر)، وهذا ما يجعلهم عرضة للانقياد لهذا الآخر والخضوع له، من غير إحساس بخطره أو حقيقة ما يقوم به من سلخهم من دينهم وسلخ بلادهم من خيراتها.

مقترحات للمعالجة:

قد تكون هذه السلوكيات ـ أو غيرها ـ ناتجة عن تربية اجتماعية خاطئة، وقد تكون ناتجة عن بعض الصفات الشخصية، وهذه الصفات قد تكون متوارثة مجبولاً عليها الإنسان، وقد تولدها التربية الخاطئة في شخص لا توجد فيه، أو تزيدها في شخص مصاب بها ولم يصل بعد إلى مرحلة الخطورة.

وإصلاح مثل هذه الشخصيات أو الحد من صفاتها السلبية وتوقي تضخمها ليس بالمستحيل إذا تم التنبه لها مبكراً وتوجيهها أو دمجها في برامج تربوية هادفة ومدروسة تهذبها وتوجه الاستعدادات الأولية الكامنة فيها إلى سلوك صالح ومفيد.

وحتى لو كانت هذه السلوكيات ناتجة عن صفات شخصية جبلية (موروثة)

حُمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

فأعتقد أنه يمكن تهذيب الشخصية التي تحمل هذه الصفات والحد من سلبياتها أو خطورتها على المجتمع، وهذا ما يستخلص من الجمع بين حديثين لرسول الله ﷺ: الأول أخرجه مسلم[1]، وفيه قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، قال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟، قال: بل الله جبلك عليهما، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله»، أما الحديث الآخر فهو ما رواه أبو الدرداء (رضي الله عنه) مرفوعًا: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يُعْطَه، ومن يتوق الشر يوقه»[2]، فالحديثان يدلان على أن بعض الصفات المجبولة (الوراثية) يمكن اكتسابها (أو اكتساب أضدادها، وبنسب متفاوتة)، وذلك وفق المنظومة العامة لنظرية الابتلاء في التصور الإسلامي[3].

(١) وأحمد، والترمذي، وابن حبان، وأبو يعلى، وأبو داود ـ وهذا لفظه ـ.

(٢) أخرجه: الدارقطني في العلل، والطبراني في مسند الشاميين، وأبو خيثمة النسائي في كتاب العلم، وصححه الألباني في تحقيقه للكتاب، ص٤٧، وحسنه في السلسلة الصحيحة، جـ١، ص ٦٧٠ .

(٣) من خلال النصوص الشرعية والنقول العلمية يمكن تلخيص هذه المنظومة في: أن الإنسان خُلق مصبوغًا بفطرة التوحيد، مُرَكَّبًا فيه غرائز ونزعات وشهوات وميول وأخلاق شتى تناسب فطرته الحيوانية والإنسانية، مع اختلاف هذه المُرَكَّبات من فرد إلى آخر، ولكن يكمن في نفس كل فرد دائمًا جانبا الفجور والتقوى، وفي الوقت نفسه فقد كُلف الإنسان في هذه الدنيا بعبادة الله (عز وجل) عبودية عامة شاملة، ومن هذه العبودية الشاملة: الاستسلام له والرضا بقضائه وقدره والرضا عنه والاستجابة لشرعه.

ولإظهار المخلص لربه المتجرد لعبوديته المستحق لثوابه من المنساق لهواه المطيع للشيطان المستحق لعقاب الله: فإن كل فرد يتعرض لابتلاءات ومحكَّات يبدو فيها أن بعض النوازع والشهوات والأخلاق والميول التي جُبل عليها تتعارض مع بعض التكاليف الشرعية، فيكون في ضبط هذه النوازع والشهوات والأخلاق والميول الجِبلِيَّة والاستقامة على هذه التكاليف.. بعض الجهد والمشقة، ولكنها لا تصل إلى العنتَ والمحال وغير المستطاع، والمؤمن البصير يعرف أن من بعض حكم هذه الابتلاءات التي يتعرض لها: استخراج هذه العبوديات منه، فهو مثلاً حين يبتلى بنوع بخل وشح ـ وقد يُزاد ابتلاؤه بالغنى واليسر ـ: ينبغي عليه أن يُخرج عبوديتا الإنفاق في سبيل الله والشكر على نعمه ويظهرهما لربه، وحين يُبتلى بحب المال مع الفقر والحاجة ـ وقد يُزاد ابتلاؤه بإتاحة المال له من طرق=

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ولمعالجة سلوك الإرجاء في حياتنا الشخصية أقترح مراعاة النقاط الآتية:

* التنبه والتنبيه إلى وجود هذا الخلل في الشخص والمجتمع، وتعريف الناس بحقيقته، مع وضع أيديهم على مظاهره في حياتهم، وضرب أمثلة حية توضحه وتبين أثره، وبيان خطورته، وإرجاع هذه المظاهر إلى جذورها مع بيان حقيقة الإرجاء وآثاره في المجتمع.
* التدرب على استحضار النية والهدف والقصد قبل التلفظ بالقول.
* التقليل من اللغو وفضل الكلام قدر المستطاع.
* ترشيد إصدار الأقوال التي يرجح أنها خارج إطار إمكانية التنفيذ، أو التي ينبني عليها أعمال يرجح القائل مسبقًا أنها لن تتحقق أو يصعب المطالبة بها.
* الحرص على متابعة تنفيذ الأقوال التي ينبني عليها عمل.
* التذكير بعدم الانخداع بمجرد صدور أقوال معسولة أو شعارات براقة حتى يصدقها العمل.
* تقديم نماذج عملية لارتباط القول بالعمل.
* تقديم القدوة الصالحة الحية والمشاهدة، وليس فقط القدوة المحكية والتاريخية.

=محرمة ـ: ينبغي عليه أن يُخرج عبوديتا الصبر والتعفف ويظهرهما لربه، وحين يبتلى بحب النساء وعدم القدرة على الزواج الحلال ـ وقد يُزاد ابتلاؤه بأن تُعرض له النساء ـ: يحتاج إلى ضبط شهوته والاستقامة على أمر الله والصبر عن المعصية والسعي إلى إجابة غريزته وشهوته فيما يحله الله، وحين يبتلى باتصافه بقوة غضبية: ينبغي عليه أن يصرفها في الانتصار للحق ويمسكها عن الاستجابة للظلم والبطش، وحين يبتلى بالمرض: يطلب من ربه الشفاء ويخرج عبودية الصبر ويظهرها لربه، وحين يبتلى بالعافية: يستثمرها فيما يرضي ربه (سبحانه) ويؤدي واجب الشكر عليها، وقد يبتلى بجمال خِلقة، فينبغي عليه ألا يتبطر، أو يبتلى بقبح خِلقة، فينبغي عليه ألا يتَسَخَّط... وهكذا، فهو في جميع أحواله يرضى بقضاء الله وقدره ويستقيم على أمره ويدعوه ويتبتل إليه.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الاتجاه المعاكس

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الاتجاه المعاكس

رأينا فيما سبق كيف أثرت الأفكار في السلوك (الفردي والجماعي)، حتى ولو انفصلت هذه الأفكار عن السلوك ولم تُستَحضَر فيما بعد، وقد يحدث أيضًا أن تؤثر الصفات الشخصية في الفكر والسلوك؛ فتغذي الفكر أو توجهه في مسار معين، أو توجِد الذريعة والتسويغ النفسي والفكري لسلوكيات معينة، في عملية تأثير وتأثر وتغذية متبادلة بين الصفات الشخصية والسلوك والفكر. . وهذا ما حدث مع الخوارج، على ما سيتضح فيما بعد.

ولكن ننبه أولاً:

أنه يخطئ من يظن أن الخوارج هم فقط من ينابذون إمام المسلمين الشرعي[1] وينشقون عليه، كما في الحالة التاريخية التي حدثت قبيل نهاية العصر الراشدي، فهم سُمّوا خوارج لخروجهم على الجماعة، وقيل: لخروجهم عن طريق الجماعة[2]، هذا إذا استخدمنا كلمة (الخوارج) باعتبارها مصطلحًا دالاً على الفرقة الإسلامية المعروفة في التاريخ الإسلامي.

أما إذا خرجنا عن الإطار الضيق للاستخدام الاصطلاحي وسبحنا في الفضاء اللغوي للكلمة فإن المعنى يتسع ليشمل صورًا كثيرة من صور الخروج، وقد استخدم كثير من العلماء المعنى اللغوي لـ (الخوارج) وذكرها مطلقة أو مقيدة في وصف بعض الطوائف المنحرفة عن الشريعة أو عن حقيقة الإسلام، إضافة إلى جميع صور الشاقين عصا المسلمين، أي: الخارجين على اجتماعهم وائتلافهم:

(١) وهو الحاكم الذي يدين بالإسلام، ويتخذه مرجعية وحيدة للحكم، ولا يقع في ناقض من نواقضه، وتتفق عليه كلمة غالب جماعة المسلمين.

(٢) انظر مثلاً: الديباج على مسلم،جـ٣، ص١٦٠، وشرح السيوطي لسنن النسائي، جـ٧، ص١١٩ .

حُمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

«قال [ابن عقيل]: والخوارج على الشريعة كثير، إلا أن الله (عز وجل) يؤيدها بالنقلة الحفاظ الذابين عن الشريعة، حفظًا لأصلها، وبالفقهاء لمعانيها»[1].

ويعقب ابن الجوزي (رحمه الله) على بعض بدع أهل التصوف بقوله: «إنما ينفرد بالإلزام الشرع وحده، وهذا كله جهل وتلاعب بالشريعة، فهؤلاء الخوارج عليها حقّاً»[2].

ويقول ابن القيم (رحمه الله): «ومن اعترض على الكتاب والسنة بنوع تأويل من قياس أو ذوق أو عقل أو حال ففيه شبه من الخوارج أتباع ذي الخويصرة، ومن نصب طاغوتًا دون الله ورسوله يدعو ويحاكم إليه ففيه شبه من أتباع مسيلمة»[3].

ويقول الإمام اللالكائي: «. . . كان أيوب يسمي أهل الأهواء كلهم خوارج. .»[4].

ويقول الإمام ابن تيمية (رحمه الله): «. . . والمقصود هنا: أن يتبين أن هؤلاء الطوائف المحاربين لجماعة المسلمين من الرافضة ونحوهم هم شر من الخوارج الذين نص النبي ﷺ على قتالهم ورغب فيه، وهذا متفق عليه بين علماء الإسلام العارفين بحقيقته، ثم منهم من يرى أن لفظ الرسول ﷺ شمل الجميع، ومنهم من يرى أنهم دخلوا من باب التنبيه والفحوى، أو من باب كونهم في معناهم؛ فإن الحديث روي بألفاظ متنوعة»، إلى أن يقول: «وإنما قولنا: إن عليّاً قاتل الخوارج بأمر رسول الله ﷺ: مثل ما يقال: إن النبي ﷺ قاتل الكفار، أي: قاتل جنس الكفار ـ وإن كان الكفر أنواعًا مختلفة ـ، وكذلك الشرك: أنواع مختلفة، وإن لم يكن الآلهة التي كانت العرب تعبدها

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٤٥١ .
(٢) السابق، ص٣٢٤ .
(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص٣٠٨ .
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، جـ١، ص١٤٣ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

هي التي تعبدها الهند والصين والترك؛ لكن يجمعهم لفظ الشرك ومعناه، وكذلك الخروج والمروق: يتناول كل من كان في معنى أولئك، ويجب قتالهم بأمر النبي ﷺ كما وجب قتال أولئك، وإن كان الخروج عن الدين والإسلام أنواعًا مختلفة، وقد بينا أن خروج الرافضة ومروقهم أعظم بكثير»[1].

* فإذا وسعنا دائرة استخدام مفهوم (الخوارج) على هذا النحو، فهل لنا أن نستخدم النصوص الواردة في (الخوارج) في غيرهم من أشباههم غير المنتمين إلى تلك الفرقة، أو الذين لا يَصِلُون إلى الحد الغائي الوارد في النصوص؟.

من خلال استعراض مواقف السلف وكلام العلماء حول هذه النقطة، لا أرى مانعًا من ذلك، ولا أرى مانعاً أيضًا من أن نسقط على الخوارج نصوصًا أخرى وردت في غيرهم، بشرط أن تتشابه الصفة بين من ورد فيهم النص ومن نسقطه عليهم.

وينبغي ملاحظة أن ذلك الإسقاط لا يلزم منه: اتحاد درجة قوة الصفة في كلا الفريقين، ولا نسبة من أسقطنا عليهم النص إلى الاسم الذي ورد في النص، ولا تنزيل الحكم الوارد في النص على من لم يرد فيه النص وأسقطناه عليه.

ولكن يستفاد من هذا الإسقاط: شمول من لحقه الوصف بنوع من الجزاء أو جنس المآل الوارد في النص، أو معرفة الصفات الغائبة عنا المرتبطة بالصفات البادية لنا، أو توقع الآثار المترتبة على وجود هذه الصفات أو تلك، وهذا ما يهمنا في هذا المبحث.

وإليك بعض النقول التي توضح ذلك:

فمما يشير إلى أن إعمال بعض النصوص في غير مناطها الغائي، مع اختلاف أسماء أصحاب المناطين (الأصلي الغائي، والجديد)، وبدون تنزيل حكمها الأصلي على المناط الجديد.. أمر غير مستهجن؛ ما يقوله الإمام القرطبي

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨، ص٤٩٤ـ ٤٩٩ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

(رحمه الله) في تفسيره: «. . . فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة، قيل له: لا يستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين، وقد قال عمر: إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء، وتوضع صحفة وترفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا**﴾ [**الأحقاف**: ٢٠]، وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة. . .»[(١)].

ومما يشير إلى إمكانية إسقاط بعض الآيات الواردة في الكفار على بعض أهل البدع والأهواء خاصة ـ وضمنهم الخوارج ـ ما يقوله الإمام اللالكائي (رحمه الله): «كان أبو قلابة إذا قرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٥٢]، قال: يقول أبو قلابة: فهذا جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة: أن يذله الله.

. . . عن سلام بن أبي مطيع، قال: رأى أيوب رجلاً من أهل الأهواء، فقال: إني أعرف الذلة في وجهه، ثم قرأ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٥٢]، ثم قال: هذه لكل مفترٍ»[(٢)].

ويقول الإمام الشاطبي (رحمه الله): «. . . وذَكَر الآجري عن طاوس، قال: ذُكِر لابن عباس الخوارج وما يصيبهم عند قراءة القرآن، فقال: يؤمنون بمحكمه ويضلون عند متشابهه، وقرأ: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**﴾ [**آل عمران**: ٧].

---

(١) تفسير القرطبي، جـ٨، ص٩٢ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للإمام اللالكائي، جـ١، ص١٤٣، وانظر: الاعتصام، للشاطبي، جـ١، ص١٢٦ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

فقد ظهر بهذا التفسير أنهم أهل البدع؛ لأن أبا أمامة (رضي الله عنه) جعل الخوارج داخلين في عموم الآية[1] وأنها تتنزل عليهم، وهم من أهل البدع عند العلماء: إما على أنهم خرجوا ببدعتهم عن أهل الإسلام، وإما على أنهم من أهل الإسلام لم يخرجوا عنهم على اختلاف العلماء فيهم.

وجعل هذه الطائفة ممن في قلوبهم زيغ فزيغ بهم[2]، وهذا الوصف موجود في أهل البدع كلهم، مع أن لفظ الآية عام فيهم وفي غيرهم ممن كان على صفاتهم.

ألا ترى أن صدر هذه السورة [آل عمران] إنما نزل في نصارى نجران ومناظرتهم لرسول الله ﷺ في اعتقادهم في عيسى (عليه السلام) (. . . .)، ثم تأوله العلماء من السلف الصالح على قضايا دخل أصحابها تحت حكم اللفظ كالخوارج؛ فهي ظاهرة في العموم.

ثم تلا أبو أمامة الآية الأخرى وهي قوله (سبحانه) : ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ [**آل عمران**: ١٠٥] إلى قولـه: ﴿ **فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٠٧]، وفسرها بمعنى ما فسر به الآية الأخرى، فهي الوعيد والتهديد لمن تلك صفته ونهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم»[3].

ويقول الإمام ابن تيمية (رحمه الله): «. . . وهؤلاء الذي يدَّعون الإيمان

---

(١) أي آية: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ٧].

(٢) إشارة إلى قوله (تعالى): ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ** ﴾ [**آل عمران**: ٧].
وقوله (تعالى): ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [**الصف**: ٥].

(٣) الاعتصام، للشاطبي، جـ١، ص٥٥ ـ٥٦ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

لأنفسهم دون أهل السنة والجماعة من المسلمين، كالخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة، لهم نصيب من قوله (تعالى): ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١١١ – ١١٢]، وبعضهم مع بعض كما قال الله (تعالى): ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾** ﴾ [**البقرة**: ١١٣]، فَهُم كما قال الإمام أحمد: مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب»[1].

ومما يشير إلى إمكان إسقاط نصوص وردت في الخوارج على غيرهم ممن هم دونهم أو أشد منهم انحرافًا ـ حتى على غير مسلمين في الحقيقة ـ: مسلك الإمام البخاري حين ترجم في (كتاب التوحيد) ضمن صحيحه: (باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم)، وأورد فيه حديث: «عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: يخرج ناس من قبل المشرق ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فُوقه، قيل: ما سيماهم؟، قال: سيماهم التحليق، أو قال: التسبيد»، جنبًا إلى جنب مع حديث: «أبي موسى (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ، قال: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة؛ طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ كالتمرة؛ طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة؛ ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة؛ طعمها مر ولا ريح لها»،

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية، جـ٢، ص٣٠١ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

فهكذا أسقط (رحمه الله) الحديث الوارد في الخوارج على الفاجر والمنافق ـ كما في ترجمة الباب ـ؛ لاتحاد صفتهم في عدم وصول قراءتهم للقرآن إلى قلوبهم، وعدم تجاوز النفع بها حناجرهم، وربما للعلة نفسها أورد أيضًا الحديثين نفسيهما في (باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكَّل به أو فخر به) في (كتاب فضائل القرآن).

وسيأتي إيضاح كيف أن ابن مسعود (رضي الله عنه) استشرف سلوكًا معينًا مرتبطًا بالخوارج في بعض الأفراد، من خلال توسمه صفات معينة فيهم لم تبلغ الحد الغائي لصفات الخوارج التي ورد ذكرها في الأحاديث الواصفة لهم.

وعلى ذلك ننبه ثانيًا:

أنه يخطئ من يظن أن هذه الفئة لا تنفك عن تكفير المسلمين على غير أصول أهل السنة والجماعة.. نعم، هذا هو الوصف (الافتراضي) للخوارج كما هو موجود في كتب العقائد و(علم الكلام)، ولكننا نلاحظ أن الأحاديث النبوية الواردة في شأن الخوارج لم تربطهم بفكر تكفيري أو غيره[1]، بل

(١) لا يخفى على القارئ أن عبارة «يقتلون أهل الإسلام» التي وردت في بعض الأحاديث وصفًا للخوارج ـ كما سيأتي ـ لا تعني بالضرورة شرعًا ولا عقلاً تكفيرهم لأهل الإسلام، وقتل أهل الإسلام كما إنه قد يكون لتكفيرهم فقد يكون أيضًا لتأويل فاسد أو لنزعة دنيوية (مصلحة أو ثأر وضغينة أو حسد).

وفي بحثي في الأحاديث حول هذه النقطة لم أجد إلا حديثًا واحدًا يتضمن احتمال الترابط بين المقاتلة والتكفير، وهو ما أخرجه ابن حبان في صحيحه، ح/ ٨١، جـ١، ص٢٨١، والبخاري في التاريخ الكبير، جـ٤، ص٣٠١ـ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، جـ٧،ح/ ٣٢٠١ـ عن حذيفة (رضي الله عنه)، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن ما أتخوف عليكم: رجل قرأ القرآن، حتى إذا رُئيت بهجته عليه وكان ردءًا للإسلام غيَّره إلى ما شاء الله، فانسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك، قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك، المرمي أم الرامي؟، قال، بل الرامي».

والحديث ليس صريحًا أنه في فرقة الخوارج ـ وإن كان يحتمل ـ، ولم أجد ـ في حدود اطلاعي ـ أحدًا من أهل العلم أورده في سياق حديثه عن الخوارج ـ وما أكثر كلامهم=

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ربطتهم بصفات وأفعال معينة ـ كما سيتضح لاحقًا ـ، هي في رأيي تدل على نفسية معينة تنبثق منها أنماط سلوكية تناسبها، بغض النظر عن طبيعة الفكر الذي تحمله الشخصية الخوارجية[1] التي تنطوي على هذه النفسية.

=عنهم –، فقد ذكره ابن حبان تحت عنوان: «ذكر ما كان يتخوف ﷺ على أمته جدال المنافق»، وذكره أبو جعفر الطحاوي في (مشكل الآثار) تحت عنوان: «باب: بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ فيمن قال لأخيه يا كافر»، وأورده ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) في معرض إنكاره على أبي علي الأهوازي رميَه أبا الحسن الأشعري بأنه مع من يقول بالكفر والإلحاد (ص ٤٠٣)، وأورده ابن كثير في التفسير بمعنى آية ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴿١٧٥﴾﴾ [**الأعراف**: ١٧٥].

ولفظ «جاره» يُشعِر أنها (حالة خروج) فردية لمصلحة أو ضغينة شخصية، وليست حالة جماعية ناتجة عن فكر أو تمرد عام من مجموعة متجانسة، كما يشعر أنها ليست خروجًا على المجتمع كله، ومما يشير إلى أن الرمي بالشرك هنا ليس دافعًا فكريًا للسعي بالسيف بقدر ما هو مجرد تسويغ لهذا السعي: أن الحديث ذكر انسلاخ هذا الرجل من الإسلام ونبذه وراء ظهره قبل خروجه بالسيف على جاره، وذلك باعتبار الفاء في «فانسلخ» للتعقيب والترتيب، كما إن الرمي بالشرك ذُكر بعد ذِكر السعي بالسيف، أي: إنه كان لاحقًا للقتال وليس سابقًا له، مع اعتبار أن الواو تستخدم لمطلق العطف والترتيب.. والله تعالى أعلم.

(١) سأستخدم فيما يأتي من البحث النسبة إلى اسم الجمع (خوارج) للتفريق بين الحديث عن الخوارج بوصفهم فرقة ذات تاريخ معين وتحمل فكرًا معينًا، وبين الحديث عن أشباههم ممن لا ينتمون إلى الفرقة نفسها ولا يحملون بالضرورة الفكر نفسه، ولكنهم يشتركون مع هذه الفرقة التاريخية في أنهم يتصفون بالصفات الواردة في الأحاديث النبوية والمستخرجة من استقراء سلوكيات الفرقة التاريخية، فهم أشباههم في الصفات والسلوكيات فقط.

فبعد هذه النسبة سيُطلق على آحاد هؤلاء الأشباه لفظ (خوارجي) وجمعه (خوارجيون) أو (خوارجيين) ـ حسب الموقع الإعرابي ـ، وستُنعت هذه الصفات المشتركة بأنها صفات (خوارجية)، وكذلك سيوصف السلوك المترتب على هذه الصفات المشتركة بأنه سلوك (خوارجي) وسلوكيات (خوارجية)، وعلى ذلك: فكل خارجي ينتسب إلى الفرقة التي وردت فيها الأحاديث هو خوارجي؛ لأنه بالضرورة يحمل هذه الصفات ويسلك هذه السلوكيات، ولا ينعكس، فليس كل خوارجي خارجي، فالخوارجي أعم من الخارجي.=

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ومما يدل على أن هذه السلوكيات كانت سابقة على التنظير الفكري للخوارج: أن أصل الخوارج وُجد قبل وجود الفِرقة ـ كما في حديث ذي الخويصرة الذي سيأتي ذكره لاحقًا ـ وأن سلوكيات الفرقة في أجلى مظاهرها ـ الخروج على عثمان (رضي الله عنه) وقتله، ثم الخروج على علي (رضي الله عنه) وبقية الصحابة ـ سبقت بناء الهيكل الفكري واكتماله لاحقًا. . بل يمكن القول: إن هذه الحالة النفسية كان لها أثر كبير في توجيه مسار هذا الفكر وانتقاء الأدلة له والتعسف لحملها على الوجه الذي يتوافق معه، بما ناسبهم مع الظرف التاريخي والحدث السياسي الذي عاصروه؛ فقد تتغير صورة هذا الفكر بتغير الظروف التاريخية والاجتماعية والأحداث السياسية والمناخ الثقافي، ولكنه في جميع صوره وقوالبه سيظل يحمل ـ بطريقة أو بأخرى ـ انعكاسات صفات الشخصية الخوارجية وسماتها التي سنوضحها فيما بعد، وستكون سلوكيات هذه الشخصية معبرة ـ بدرجةٍ ما ـ عن هذه الصفات وليس عن هذه الصورة أو تلك من الفكر، حتى ولو غذى فكرٌ ما في وقتٍ ما هذه السلوكيات وأمدها بغطاء من المخادعة الإقناعية.

ومما يبين أن العامل الفكري ليس هو المحرض الحاسم على السلوكيات الخارجية أنه رغم كون المعتزلة أقرب الفرق إلى فكر الخوارج من ناحية النظر إلى موقفهم من فاعل الكبيرة[1]، ورغم أن الخوارج (الفرقة الكلامية) يعدون

=آملاً أن يبعد هذا التفريق من ذهن القارئ استدعاء الصورة الذهنية لفرقة الخوارج التي وردت فيها الأحاديث ـ بما تحمله من تاريخ وفكر وأحكام ـ عند معالجة ما نحن بصدده، فنحن لا نتحدث أساسًا عن هذه الفرقة التاريخية ولا عن فكرها، وإنما نحاول الاستفادة مما جاء في الأحاديث الواردة فيها من صفات ـ أرى أنها لا تخصها بالضرورة ـ تترتب عليها سلوكيات معينة؛ للحذر منها ومعالجتها في واقعنا.

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «. . . كفَّرت الخوارج بالذنب، وجعلوا صاحب الكبيرة كافرًا مخلدًا في النار، ووافقتهم المعتزلة على زوال جميع إيمانه وإسلامه وعلى خلوده في النار، لكن نازعوهم في الاسم، فلم يسموه كافرًا، بل قالوا: هو فاسق، لا مؤمن ولا مسلم ولا كافر، نزله منزلة بين المنزلتين، فهم وإن كانوا في الاسم إلى السنة أقرب، فهم في=

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

عالة على المعتزلة في كثير من المسائل العقدية النظرية، إلا أن سلوك المعتزلة العملي تجاه مخالفيهم لم يكن المقاتلة كما فعل الخوارج[1]، بل تمثل في السعي إلى حمل المخالفين لهم على اعتقاد ما يرونه صواباً، ورغم أن ذلك درجة مخففة ـ وإن كانت مزعجة ـ من السلوك الخوارجي (الأحادية، والمصادرة)، إلا أن الملاحظ أنه سلوك تشترك فيه كثير من الفرق الإسلامية عندما تعتريها الحالة النفسية الخوارجية وتجد فرصة في الواقع للتمكن من مخالفيها، وللحق فإن أهل السنة ـ في حالتهم السوية ـ يعدون أمثل جماعات المسلمين في الخلو من هذا المسلك، وهو ما يؤكده عدم سعي الإمام أحمد (رحمه الله) في فرض قول أهل السنة بعدم خلق القرآن بعد انتهاء المحنة التي أحدثها المعتزلة واقتراب الخليفة المتوكل منه وثقته فيه، ويؤكده أيضًا موقف الإمام مالك (رحمه الله) في رفضه رغبة أبي جعفر المنصور ثم الرشيد في جمع الناس على الموطأ أو إلزام القضاة به.. ولذلك حديث آخر.

كما يبين ذلك أيضًا (تأخر أهمية تأثير عامل الفكر على السلوك الخارجي): أنه عندما انفصل الفكر الخارجي عن الصفات النفسية المذكورة أصبح أصحاب هذا الفكر مجرد فرقة (كلامية) من المسلمين يعتريها ما يعتري الفرق الأخرى من أحوال الخصومة والمسالمة والعداوة والمعايشة مع جماعة المسلمين، ومن المشهور أن معظم سكان مواطِن أشهر فرقة خارجية نمطية في العالم العربي الآن (الإباضية)، من أكثر الناس مسالمة ووداعة إذا قورنوا بغيرهم من أصحاب

=الحكم في الآخرة مع الخوارج» (العقيدة الأصفهانية، ص١٧٥، وانظر: مجموع الفتاوى، جـ٧، ص٦٧٢).

(١) يقول عبد القاهر البغدادي في (الفرق بين الفرق ـ ص٩٩): «ولهذا قيل للمعتزلة: إنهم مخانيث الخوارج؛ لأن الخوارج لما رؤوا لأهل الذنوب الخلود في النار سموهم كفرة وحاربوهم، والمعتزلة رأت لهم الخلود في النار ولم تجسر على تسميتهم كفرة، ولا جسرت على قتال أهل فرقة منهم، فضلاً عن قتال جمهور مخالفيهم».

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الاعتقادات الأخرى في بيئات مختلفة، رغم أن هذه الفرقة نفسها عرف عنها سابقًا أنهم «قتلوا الناس وسبوا الذرية وقتلوا الأطفال وكفروا الأمة وأفسدوا في العباد. .»[1].

ولكن الذي حدث أن واقع الخوارج (التاريخيين) هو الذي ربطهم بالفكر التكفيري المشهور عنهم، وهذا ما أعمانا عن وجود فئات وأنماط أخرى من الخوارجيين تعيش وتتوالد في مجتمعاتنا وتمارس السلوكيات الخوارجية دون أن ننتبه لخطر هذه الفئات وخطورة هذه النفسيات وما تتولد عنها من سلوكيات.

وهكذا: إذا تأملنا في السلوكيات الخوارجية نجد أنها نابعة من حالة نفسية ـ تفاعلت مع ظروف اجتماعية أو مواقف سياسية معينة ـ قبل أن تكون تعبيراً عن منظومة فكرية محددة، ومن ثم: فإذا ما أعدنا النظر إلى الخوارجيين وفق هذا المنظور (انفصالهم عن الفكر التكفيري) ونظرنا بدقة وشمولية في واقعنا، فقد نجد هذه الحالة ونشاهد هذه السلوكيات فيمن لا يحملون هذا الفكر (كلامياً)، بل قد نشاهدها فيمن يقول ببعض مقولات أهل الإرجاء ـ الطرف الفكري المعاكس للفكر الخارجي ـ، فإذا ما وعينا ذلك: شاهدنا في واقعنا بجانب الخوارج أصحاب الفكر التكفيري: الخوارجيين أصحاب الفكر الإرجائي، والخوارجيين أصحاب الفكر العلماني، والخوارجيين عديمي الفكر. . وغيرهم من أصحاب هذه النفسيات المريضة، وقد نجد بعض سلوكيات الخروج شاخصة في مفكر أو سياسي أو إداري أو معلم أو طالب علم أو تابع أو متبوع. . . كل بحسبه.

******

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي الشافعي، ص٥٢، وانظر أيضًا: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، للشوكاني، ص٥٥ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

من الملاحظ أن الخوارج ـ وأيضًا المرجئة ـ من أقل الفرق تأثرًا ـ في نشأتها ـ بالعامل الفكري الخارجي (غير الإسلامي)؛ حيث لم يكن المجتمع الإسلامي انفتح بعد على الثقافات الوافدة، بخلاف المعتزلة والجهمية ـ ومن كانوا عالة عليهم ـ مثلاً، الذين أثرت الثقافات اليونانية والفارسية والهندية في منهجيتهم الفكرية ومذهبهم العقدي، وهذا يدعونا إلى مزيد من البحث في العوامل الداخلية والذاتية التي قادت الخوارج إلى انتهاج هذا السلوك وتبني هذا الفكر؛ لنتعرف على سمات الشخصية الخوارجية بيننا.

كما تعد الخوارج من الفرق القليلة التي جاء في وصفها ـ كفرقة ـ نصوص شرعية صحيحة، كما أنهم من الفرق التي تشكلت مبكرًا في مسيرة المجتمع الإسلامي، حيث عاصرها كثير من الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعين، وهذا ما يعيننا على استكشاف صفاتهم وخصائصهم التي تميزهم بدقة نسبية عن غيرهم، وأعني هنا بالأساس الصفات والخصائص النفسية المؤثرة في سلوكياتهم المعروفة عنهم.

وهذا المسلك ـ ملاحظة الصفات، وتوقع السلوك من خلالها ـ ليس بِدعًا، بل نلاحظه في النصوص نفسها ـ كما سيتضح ـ، ولكن لم يحفل بالاهتمام به والإشارة إليه كثير من الباحثين، فلنبدأ أولاً بسرد نصوص أهم الأحاديث والآثار التي وردت في ذكر الخوارج، ثم نحاول ما استطعنا استخراج الصفات الخوارجية منها بعد الانتهاء من سردها:

على رأس هذه النصوص يذكر العلماء: حديث ذي الخويصرة التميمي الذي رواه أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) وغيره، قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يَقْسِم قسمًا، أتاه ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ، فقال: يا رسول الله، اعدل!!، فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

فأضرب عنقه، فقال: دعه؛ فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نَصْلِه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصافِه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيِّه ـ وهو قدحه ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم»[1].

وبالتأمل في هذا الحديث نلاحظ أولاً أن رسول الله ﷺ بيّن أن هذا الرجل أصل لفرقة الخوارج (وهـذا ما توضحه روايـة أخرى: يخرج من ضِئْضِئ هذا ـ أو في عقب هذا ـ)، وأصحابه هنا تعني: مَن هم على شاكلته وطريقته أو من هم بمثل صفاته، أي: ليس بالضرورة أن يكون هذا الرجل عرفهم أو قابلهم أو أنه هو الذي كونهم ورباهم، وهذا ما أشار إليه ابن عبد البر (رحمه الله)[2].

فهل يمكن لأحد منا استكشاف الشخصية الخوارجية من خلال التعرف على بعض الصفات المحورية لنفسيتها؟، وبمعنى آخر: هل يمكن معرفة الصفات النفسية المحورية التي ترتبط بالسلوكيات الخوارجية، أو التي تساعد على تولدها؟، هذا ما نحاول الوصول إليه، وأعتقد أن مفتاح ذلك: العناية بالتعرف على الخصائص النفسية لهذا الرجل؛ لعلها تساعد في هذا الاستكشاف.

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يغزو مع رسول الله ﷺ، فإذا رجع وحط عن راحلته عمد إلى مسجد الرسول فجعل يصلي فيه فيطيل الصلاة؛ حتى جعل أصحاب النبي ﷺ يرون أن له فضلاً عليهم، فمر يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في أصحابه، فقال له بعض أصحابه: يا نبي الله، هو ذاك الرجل، فإما أَرسل إليه نبيُّ الله وإما جاء من قِبَل نفسه، فلما رآه رسولُ الله ﷺ مقبلاً قال: والذي نفسي بيده إن بين

(١) أخرجه: البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن حبان، والبيهقي.
(٢) في التمهيد: جـ٢٣، ص٣٣٢ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

عينيه سفعة من الشيطان، فلما وقف على المجلس قال له رسول الله ﷺ: أقُلتَ في نفسك حين وقفتَ على المجلس: ليس في القوم خير مني؟، قال: نعم، ثم انصرف، فأتى ناحية من المسجد فخط خطًا برجله ثم صف كعبيه فقام يصلي، فقال رسول الله ﷺ: أيكم يقوم إلى هذا فيقتله (.....)، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا أول قرن خرج في أمتي، قال رسول الله ﷺ: لو قتلتَه ـ أو قتله ـ ما اختلف في أمتي اثنان، إن بني إسرائيل تفرقوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ـ يعني أمته ـ ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة، فقلنا يا نبي الله: مَن تلك الفرقة؟، قال: الجماعة»[1].

إضافة إلى الأحاديث الأخرى التي تبين صفات الخوارج، فإننا نجد أكثر من حالة ربط فيها بعض الصحابة بين الصفات المميزة للشخصية الخوارجية وتوسم وقوع السلوكيات الخوارجية مِن بعض مَن يحملون هذه الصفات قبل صدورها منهم، أي: إنهم استكملوا بناء صورة محددة، بعد ملاحظة صفات

(١) ورد في بعض الروايات عن هذا الرجل: «قال موسى: سمعت محمد بن كعب يقول: هو الذي قتله علي، ذا الثدية»، والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (جـ٦، ص٢٢٦)، وقال: رواه أبو يعلى، ويزيد الرقاشي ضعفه الجمهور، وفيه توثيق لين، وبقية رجاله رجال الصحيح.
وقد أخرجه أبو يعلى، ح/ ٩٠، جـ١، ص٩٠، وح/٣٦٦٨، جـ٦، ص٣٤٠، وح/ ٤١٢٧، جـ٧، ص١٥٤ـ واللفظ له ـ، وح/ ٤١٤٣، جـ٧، ص١٦٨ ـ وضعف إسناده الشيخ حسين أسد ـ، كما أخرجه الدارقطني، ج٢، ص٥٤، وعبد الرزاق في مصنفه، ح/ ١٨٦٧٤، جـ١٠، ص١٥٥، وذكره أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في (الأحاديث المختارة، ٧/ ٨٩) بسند ذكر أنه صحيح.
والحديث حتى وإن كان ضعيفًا فإن له طرقًا عديدة، كما أنه للاستئناس وليس للتأصيل، فالمعاني التي يدل عليها الحديث في مجموعها لها شواهد عديدة، فيما عدا الأمر بقتل هذا الرجل؛ فإنه يخالف سنة المصطفى ﷺ في الكف والنهي عن قتل من أظهر الإسلام ولم يُظهر ردة بينة، وقد ورد هذا النهي في أمثال هذا الرجل وأشد منه، كذي الخويصرة السابق ذكره.
والجديد في هذه الرواية ـ وهو ما دعاني لذكرها رغم ضعفها ـ هو ذكر صورة تشخيصية لنموذج (خارجي) تتمثل فيه كثير من الصفات (الخوارجية) المتفرقة في أحاديث أخرى عديدة صحيحة.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

معينة في بعض مَن قابلوهم، وكأن هذه الصفات أصبحت متلازمة فيما بينها، أو فيما بينها وبين بعض السلوكيات.

من هذه الحالات: ما أخرجه مسلم[1]، عن أبي وائل، «قال: جاء رجل ـ يقال له: نَهِيكُ بن سِنَان ـ إلى عبد الله [ابن مسعود]، فقال: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرف؟ ألفًا تجده أم ياءً: ﴿**مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ**﴾ أو (مِّن مَّاء غَيْرِ ياسِنٍ)، قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟، قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة!، فقال عبد الله: هَذّاً كَهَذِّ الشعر، إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود».

ومنها أيضًا: ما أخرجه الدارمي في سننه[2] عن عمرو بن يحيى: قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: «كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخَرَجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟، قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج.

فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرتُه ـ ولم أرَ والحمد لله إلا خيرًا ـ، قال: فما هو؟، فقال: إن عِشتَ فستراه!، قال: رأيتُ في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حَلْقة رجل، وفي أيديهم حصًى، فيقول: كبروا مئة، فيكبرون مئة، فيقول: هللوا مئة، فيهللون مئة، ويقول: سبحوا مئة، فيُسَبِّحون مئة، قال: فماذا قلتَ لهم؟، قال: ما قلتُ لهم شيئًا انتظار رأيك وانتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يَعُدُّوا سيئاتهم وضمنتَ لهم أن لا يضيع من حسناتهم؟.

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقَة من تلك الحِلَق، فوقف عليهم، فقال:

(١) وابن خزيمة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.
(٢) حديث رقم ٢٠٤، وقال الشيخ حسين أسد: إسناده جيد.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ما هذا الذي أراكم تصنعون؟، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم؛ فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، وَيْحَكُم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايْمُ الله، ما أدري لعل أكثرهم منكم!![1]، ثم تولى عنهم.

فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحِلَق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج».

فاقتباس ابن مسعود (رضي الله عنه) لصفة وردت نصّاً في الخوارج (يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم) فى الأثرين السابقين يشير بوضوح إلى ارتباط هذه الصفة بالصفات والسلوكيات التي عاينها.

أهم الصفات الخوارجية:

وهكذا بتأمل الأحاديث النبوية العديدة والآثار المروية وسيرة الخوارج، يمكننا الوقوف على الصفات النفسية والسمات الشخصية للشخصية الخوارجية، وهو ما أحاول هنا استخلاصه؛ ليمكننا التعرف على هذه الصفات والسمات؛ لنتوقاها، ونضع أيدينا عليها في واقعنا، ونعمل على معالجتها.

والملاحظ أن مجموعة الصفات المستخلصة يمكن تقسيمها إلى: صفات تظهر قبل ظهور السلوك الخوارجي (الصفات المؤهلة لهذا السلوك)، وصفات تظهر أثناء حدوث السلوك الخوارجي وبعده، كما يمكن تقسيمها إلى: صفات

(١) لاحظ هنا أنه (رضي الله عنه) أسقط عليهم صفة الخوارج قبل خروجهم الفعلي، أي: إنه استشرف سلوكهم من خلال صفاتهم، وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك كما ذكر عمرو بن سلمة لاحقًا.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

نفسية ذاتية، وصفات تتعلق بالفكر، وصفات تتعلق بالحركة، ويمكن أيضًا تقسيم هذه الصفات إلى: صفات أساسية، وصفات فرعية أو ثانوية تتوقف على قوة أو ضعف صفات أخرى.

كما يلاحظ أنه قد تجتمع هذه الصفات كلها في فئة أو شخص ما، وقد يوجد بعضها ـ أكثرها أو أقلها ـ في فئة أو شخص آخر، فالأمر يدور بين: الغائية ممثلة في أصل الخوارج الخويصريين، والنسبية ممثلة في أشباههم وأطيافهم في كل زمان ومكان، وكما إن الإيمان والكفر أصول وشعب فالسنة والبدعة أصول وشعب أيضًا؛ وعلى ذلك ننبه: أنه ليس بالضرورة إذا وُجِدت صفة أو أكثر في شخص أو فئة ما.. أن يلزم وجود بقية الصفات الأخرى وأن تترتب عليها جميع السلوكيات التي تتولد عن هذه الصفات، مع الأخذ في الاعتبار أن هناك بعض الصفات المرتبطة بعضها ببعض أو التي تترتب عليها سلوكيات معينة، وهذا ما سنتبينه أثناء الحديث عن هذه الصفات.

وأهم هذه الصفات ما يأتي:

*** جفاء الطبع، والخشونة، والحدة في التعامل:**

وهي عمومًا سمة مميزة لمعظم أهل البداوة الذين كان منهم ذو الخويصرة التميمي، وهو ما نلاحظه بجلاء في أسلوب خطابه وتعامله مع رسول الله ﷺ، ولكن هذه الصفة ليست قاصرة على أهل البداوة، فقد نجدها في غيرهم، وقد نصَّت بعض الروايات التي وصفت الخوارج على أنهم: «أقوام أشداء أحداء»[(١)]، وفي رواية أخرجها الحاكم[(٢)]: «إن أقوامًا من أمتي أشدة...».

وتعد هذه الصفة حجر الزاوية في الشخصية الخوارجية، كما تعد أهم صفة

(١) أخرجه أحمد ـ وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط، ح/ ٢٠٤٦٤: إسناده قوي على شرط مسلم ـ، والحاكم، والبيهقي، والهيثمي في مجمع الزوائد.
(٢) المستدرك، جـ٢، ص١٥٩ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

يستقبل بها الخوارجي الأحداث ويفسرها بها، وأكبر مؤثر على ما يرسله في الوسط المحيط به.

*** إحسان الظن في النفس والعُجب بها، وفي الوقت نفسه: نظرة سوداوية في الآخرين وإساءة الظن بهم:**

فالشخص الخوارجي يعتقد أنه وحده الحريص على الحق وأنه وحده الساعي إلى الخير، فهو يعيش على وهم أنه ـ وحده ـ على (الطهر التام) وأن المخالفين له على (الرجس التام)، وتأمل قول ذي الخويصرة لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، اعدل!!»، كيف يظن في نفسه أنه وحده ـ ليس دون جميع الصحابة فقط، بل دون رسول الله ﷺ المصطفى من البشر، المرسل من ربه، المؤيد بوحيه ـ الحريص على العدل المنافح عنه، وتأمل ما يحمله ذلك القول من إساءة ظن في جميع الحضور[1]، وتأمل قول نهيك بن سنان لابن مسعود (رضي الله عنه): «إني لأقرأ المفصل في ركعة!» وما فيه من العجب بعبادته، وتأمل كيف فهم ابن مسعود (رضي الله عنه) أن عدَّ التكبير والتهليل والتسبيح الذي كانت تفعله حلقة المسجد، يدخل فيه تزكية النفس

(١) وقد أشار ابن الجوزي (رحمه الله) إلى هذا المعنى، فقال: «وآفته [أي: ذو الخويصرة] أنه رضي برأي نفسه، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله» (تلبيس إبليس، ص١١١). وقريب من هذا السلوك ما نجده أحيانًا في واقعنا مستترًا بفهم خاطئ لقول ابن مسعود (رضي الله عنه): «الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»، وهو ليس في إنشاء اجتهاد جديد وظنه الحق، ثم تبنيه والإصرار عليه وحده ومفارقة الناس عليه، بل كما قال نعيم بن حماد: «يعني: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ» (انظر: تهذيب الكمال، للحافظ المزي، جـ٢٢، ص٢٦٤ـ٢٦٥)، فهو في التزام طاعة معروفة فرّط في التزامها الناس، وليس في إنشاء رأي منفرد دونهم ثم الاستبداد به وإساءة الظن في الآخرين المخالفين له، وقول نعيم بن حماد (رحمه الله) يجيب من جهة أخرى على سؤال: من هم (الخوارج) الحقيقيون في المجتمع؟، وما هي حقيقة الخروج؟.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

والعجب بالعمل؛ لذلك أرشدهم إلى اتهام أنفسهم وترك العجب بعملهم، بقوله: «فعدُّوا سيئاتكم».

بل إن صفة العجب بالنفس في الشخصية (الخارجية) ذُكرت صراحة في بعض الأحاديث، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «ذُكر لي أن نبي الله قال ـ ولم أسمعه منه ـ: إن فيكم قومًا يعبدون ويدأبون ـ يعني: يعجبون الناس وتعجبهم أنفسهم ـ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1]، وعنه (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفُرقة، وسيجيء قوم يعجبونكم وتعجبهم أنفسهم، الذين يقتلونهم أولى بالله منهم، يحسنون القيل ويسيئون الفعل، ويدعون إلى الله وليسوا من الله في شيء...»[2]، وفي الحديث الآخر السابق ذِكْره عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال للرجل الذي أعجب الصحابة في اجتهاده وعبادته: «أقلتَ في نفسك حين وقفتَ على المجلس: ليس في القوم خير مني؟، قال: نعم...».

لا يقتصر العجب بالنفس وتزكيتها على كونه آفة تُنقص من قدر صاحبها عند الله باعتباره مناقضًا لقوله (تعالى): ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾ [**النجم**: ٣٢]، بل لذلك مردوده على الشخص نفسه في علاقته بالآخرين، وهذا ما يعنينا هنا، ومن أهم ما نشير إليه في هذه النقطة: أن الشخص المعجب بنفسه يصعب تغييره وعلاج السلبيات والنقائص التي في شخصيته؛ إذ إنه لا يرى هذه السلبيات والنقائص ابتداءً، وبديهي أن أول خطوة في المعالجة الفعلية للمريض هي اقتناعه أنه بالفعل مريض وبحاجة إلى علاج، أما في حالة

(١) مسند الإمام أحمد، ح/١٢٩٩٥، جـ٣، ١٨٩، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو يعلى، ح/٤٠٦٦، جـ٧، ص١١٦، وصححه الشيخ حسين أسد.

(٢) المستدرك، جـ٢، ص١٦٠ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

المعجب بنفسه فإن احتمالية نسبته الخطأ إلى نفسه تكون ضعيفة جداً، وتكاد تكون معدومة، وهذا ما ألمح إليه ابن الجوزي (رحمه الله) عند حديثه عن الخوارج، فقال: «وكانت الخوارج تتعبد، إلا أن اعتقادهم أنهم أعلم من علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، وهذا مرض صعب»[1]؛ لذلك فإن هز هذا العُجب ومواجهة هذه الشخصية بحقيقة نفسها قد يكون مفيداً في أحيان كثيرة.. هذه واحدة.

وأخرى ـ وهي أهم، وقد أشرت إليها آنفًا ـ: أنه تتلازم ـ غالبًا ـ تزكية النفس والعجب بها مع إساءة الظن في الآخرين واحتقار أعمالهم والنظر إليهم بدونية وتنقص، وهذا مما يجعل الخوارجي سلبيًا تجاه الآخرين ومتقوقعًا على نفسه غالبًا، أي إنه يصعب عليه إقامة جسور تواصل مع الآخرين، كما إنه بهذه الحالة لا يصلح لحمل دعوة عالمية ونشرها بين جميع الناس.

فالخوارجي يغيب عنه أن نظرتنا بإيجابية إلى الآخرين ـ حتى ولو كانوا مقصرين أو مذنبين ـ يجعلنا نكتشف فيهم جوانب الخير المضيئة ـ حتى ولو كانت في زوايا ومضايق ـ وننميها؛ وهذا يعطيهم الثقة في جانب (تقواها) من أنفسهم، مما يساعدهم على الترقي بهذا الجانب والتغلب على أسباب الضعف والقصور الكامن في (فجورها) [2]، وهذه خطوة مهمة في معركتهم مع الهوى والشيطان، وسبيل لبسط دعوة الخير بين الناس.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

(١) تلبيس إبليس، ص١١٢ .

(٢) فالجانبان مركوزان في النفس الإنسانية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ – ٨].

* **الاهتمام بالظواهر على حساب البواطن، وعدم التوازن في العلاقة بينهما:**

وهذا ظاهر في وصف رسول الله ﷺ لهم في أحاديث كثيرة صحيحة[1] بأنهم: «... يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم...»، وفي روايات أخرى: «... قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم...»، وفي بعض الروايات: «... ذلقة ألسنتهم بالقرآن، لا يجاوز تراقيهم...»[2].

وعن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفُرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم...»[3].

فإذا اعتبرنا أن جملة «يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم» مفسرة لجملة «يحسنون القيل، ويسيئون الفعل»، فإن القيل الحسن يكون قراءة القرآن، وإساءة الفعل تكون عدم مجاوزة تراقيهم، أي: عدم وصوله إلى قلوبهم، وإذا أخذنا في الاعتبار إخبار الرسول ﷺ أن لهم أفعالاً حسنة في ظاهرها ـ وليس فقط أقوالاً ـ (يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم)، تكون إساءة الفعل المقصودة في هذا الحديث: عدم صدور الأقوال والأفعال الحسنة الظاهرة من باطن حسن يتفق مع حُسن هذه الأقوال والأفعال، أو عدم تأثر هذا الباطن بهذه الأقوال الحسنة.

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: «(لا يجاوز حناجرهم)، قال الداودي: يريد أنهم تعلقوا بشيء منه، قلت: إن كان مراده بالتعلق الحفظ فقط دون العلم بمدلوله فعسى أن يتم له مراده، وإلا فالذي فهمه الأئمة من السياق أن المراد

(١) أخرجها: السبعة، والحاكم وابن حبان وأبو يعلى والبيهقي والدارمي، وغيرهم.
(٢) المستدرك، جـ٢، ص١٥٩ .
(٣) أخرجه: أبو داود، والحاكم في مستدركه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ح/ ٣٦٦٨، وصحيح سنن أبي داود، ح/ ٤٧٦٥ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

أن الإيمان لم يرسخ في قلوبهم؛ لأن ما وقف عند الحلقوم فلم يتجاوزه لا يصل إلى القلب، وقد وقع في حديث حذيفة نحو حديث أبي سعيد من الزيادة: لا يجاوز تراقيهم ولا تعيه قلوبهم»[1]، ويقول في موضع آخر: «والمراد: أنهم يؤمنون بالنطق لا بالقلب، وفي رواية عبيد الله بن أبي رافع عن علي ـ عند مسلم ـ: يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز هذا منهم، وأشار إلى حلقه»[2].

ويقول ابن الجوزي (رحمه الله): «وقوله (لا يجاوز تراقيهم): .... المراد: أن تلاوتهم باللسان دون استقرار الإيمان والفهم في القلب»[3].

وهذا ما فطن إليه ابن مسعود (رضي الله عنه) في أقوال مَن قابلهم من الخوارج ـ قبل خروجهم ـ، فعندما قالت له حلقة المسجد: «حصًا نعد به التكبير والتهليل والتسبيح»، قال لهم: «فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء... إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم...»، وفي عبارته ما يومئ بأنه فهم من فعلهم وقولهم أنهم يظنون أن إتقانهم وإحكامهم لظاهر العبادات هو وحده الضمانة لقبول هذه الأعمال، واستنتج من ذلك أن عدَّهم لأعمالهم الصالحة كان على حساب التدبر والتزكي؛ لأنهم عندما شغلهم مراقبة ظاهر جوارحهم لم يصل ذكر الله إلى شغاف قلوبهم (لا يجاوز تراقيهم).

وهذا ما نلمسه أيضًا عندما قال له نَهيك بن سنان: «إني لأقرأ المفصل في ركعة»، فرد عليه بقوله: «هَذّاً كَهَذِّ الشعر، إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع..»؛ يقول الإمام النووي في تعليقه على هذا الأثر: «قوله: (إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم،

(١) فتح الباري، جـ٩، ص١٠٠ .
(٢) السابق، جـ١٢، ص٢٨٨ .
(٣) كشف المشكل، جـ١، ص٣٠١ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع)، معناه: أن قومًا ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»[1].

«وقال ابن بطال: معنى هذا الباب [باب: قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم]: أن قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله، ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه وكان عن نية التقرب إليه، وشبهه بالريحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت ـ وهو الحلق ـ ولا اتصل بالقلب، وهؤلاء هم الذين يمرقون من الدين»[2].

والحاصل: أن من صفات الخوارجيين: خلو أعمالهم الصالحة الظاهرة من مقاصدها وثمراتها، وافتقارهم ـ على المستوى التربوي ـ إلى تزكية البواطن والاهتمام بها ومطابقتها لظواهرهم من الأقوال والأفعال الحسنة.

* ولا يعني ما ذكر عن الشخصية الخوارجية من اهتمامها بالأعمال الظاهرة تفريطنا في هذه الأعمال أو إهمالها، ولكن المقصود: ألا تكون هذه الأعمال وحدها هي محور اهتمامنا ودعوتنا ومحل تركيزنا، وأن نحرص على أن تشتمل هذه الأعمال على دلالاتها وثمراتها الباطنة.

* وهنا يرد تساؤل، وهو: أن كثيرًا من العلماء تحدث عن ارتباط الظاهر بالباطن، أفلا يدل هذا الظاهر الحسن على صلاح الباطن؟، أو: إذا كانت هذه هي حقيقة باطنهم بالفعل، فلماذا اختلف الظاهر عن الباطن؟، ويرد تساؤل آخر، وهو: لقد أشرنا في المحور الأول إلى تأثير الظاهر على الباطن، فلماذا لم تؤثر هذه الأعمال الظاهرة الصالحة على الباطن، فتُصْلِحه؟.

(١) شرح النووي على مسلم، جـ٦، ص١٠٥ .
(٢) فتح الباري، جـ١٣، ص٥٣٦ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

والإجابة على هذه التساؤلات تضطرنا إلى إيضاح بعض الجوانب المتعلقة بمسألة علاقة الظاهر بالباطن؛ ولأن بحث هذه المسألة بالتفصيل قد يخرجنا عن الإطار المرسوم لهذا البحث فسأستعرض هنا شوارد هذه المسألة، موجهًا إياها بما أعتقد أنه جمع بين الأدلة المختلفة فيها وخلاصة لأقوال العلماء، فأقول ـ وبالله التوفيق ـ:

إن هذه المسألة يُنظر فيها في جانبين: جانب الأحكام، وجانب الارتباط بين الظاهر بالباطن. وجانب الأحكام ينقسم إلى: الأحكام في الظاهر، والأحكام في الحقيقة. أما جانب الارتباط بين الظاهر والباطن فينقسم إلى: ارتباط الوجود، بحيث نقول: إنه إذا وُجِد أحدهما وُجِد الآخر حتمًا - أو هكذا ينبغي-، وارتباط التأثير، أي: مدى تأثير كل منهما في الآخر، وهذا الجانب الأخير هو المتعلق ببحثنا.

وعلى هذا يمكن القول:

إن الأصل في جانب الأحكام الظاهرة إجراؤها بحسب الظواهر المعتبرة دون النظر إلى البواطن المظنونة أو الظواهر التي لا ترقى إلى درجة الدلائل والبينات، مع الأخذ في الاعتبار مسألة تعارض الظواهر مع بعضها والترجيح بينها، أو وجود دلائل قوية (ظاهرة) على مخالفة الباطن للظاهر الذي يبديه الشخص المحكوم عليه.

أما الأحكام في الحقيقة، أي: التي عليها مدار الثواب والعقاب الأخروي، فالعمدة فيها هو الباطن، وعلى ذلك فالناس ينقسمون في الحقيقة إلى: مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وكافر ظاهرًا وباطنًا، ومنافق كافر في الباطن مع كونه مسلمًا في الظاهر.

ثم يأتي الجانب الآخر الذي فيه الأخذ والرد، وهو ارتباط الظاهر بالباطن:

الأصل (المُفترض) أن يكون الظاهر موافقًا للباطن، وأن كلاهما يؤثر في

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الآخر، ولكن توجد حالات ـ أو أمثلة ـ يُقطع فيها باختلاف الظاهر عن الباطن جديرة بالتأمل والاعتبار، مثل: إسلام المنافقين، والمكره على الكفر المطمئن قلبه بالإيمان، ومؤمن آل فرعون، ومثل قول الصحابي محمد بن مسلمة (رضي الله عنه) في رسول الله ﷺ ـ بعدما استأذنه ـ قولاً لا يتفق مع إيمانه، عندما أراد قتل كعب بن الأشرف، والقصة معروفة، ومن ذلك: طاعات الخوارج التي نتحدث عنها..

وفي ضوء هذه الحالات والأدلة الشرعية وأقوال العلماء نستطيع القول: إن الأصل في ارتباط الوجود هو أن الظاهر انعكاس للباطن، والباطن مُفرِز للظاهر، بحيث إنه إذا وُجد أحدهما وجد الآخر المعبر عنه حتمًا، ولكن ذلك بشروط، أهمها: وجود الصدق والإخلاص والقصد والإرادة في الباطن، ووجود المقتضى وانتفاء الموانع والمعارضات في الظاهر، فإذا تخلف شرط أو أكثر من هذه الشروط اختلت علاقة حتمية الوجود بينهما.

أما ارتباط التأثير: فإن الأدلة متضافرة على وجود تأثير متبادل بين الظاهر والباطن، مع كون أن الأصل في التأثير هو الباطن (القلب)، ولكن ذلك أيضًا بالشروط السابق ذكرها، إضافة إلى شرط مهم آخر في الظاهر، وهو وجود جزء باطني مصاحب للعمل الظاهر، هو القصد إلى ثمرة العمل الباطنة.

فإذا تقرر ذلك فلا غرابة أن نجد أناسًا ـ مثل الخوارجيين ـ يهتمون بالأعمال الظاهرة دون أن يؤثر ذلك في بواطنهم، ودون أن يدل ذلك على صلاح هذه البواطن؛ فهي أعمال (لا تجاوز حناجرهم).

* التركيز على الإحصاء والكم دون المعاني والكَيْف:

فقد ورد في كثير من أحاديث صفة الخوارج قولُ الرسول ﷺ مخاطبًا الصحابة (رضي الله عنهم): «... يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

إلى صيامهم. . .»، فإذا كان اهتمام الخوارج منصبًا على الظواهر وخاليًا من أعمال الباطن ـ كما سبق إيضاحه، وتؤيده رواية لمسلم عن علي (رضي الله عنه): «لا تجاوز صلاتهم تراقيهم»ـ، لم يبق شيء في صلاة الخوارج وصيامهم يحقر إليه الصحابة صلاتهم وصيامهم إلا الطول والعدد (الكَم)، يقول ابن حجر العسقلاني (رحمه الله): «وفي رواية عاصم بن شميخ عن أبي سعيد: تحقرون أعمالكم مع أعمالهم، ووصف عاصم أصحاب نجدة الحروري بأنهم يصومون النهار ويقومون الليل. . . وفي رواية سلمة بن كهيل عن زيد بن وهب عن علي: ليست قراءتكم إلى قراءتهم شيئًا ولا صلاتكم إلى صلاتهم شيئًا، أخرجه مسلم والطبري. . .»[1].

والاهتمام بالإحصاء والكم واضح أيضًا في قول نَهِيك بن سنان لابن مسعود (رضي الله عنه): «إني لأقرأ المفصل في ركعة!»، حيث كان الكم (المفصل) هو مدعاة فخره ودفعه عن نفسه تهمة عدم الاهتمام بالقرآن، ولذا رد عليه ابن مسعود (رضي الله عنه) بقوله: «هذّاً كهذِّ الشعر»، أي: سردًا وإفراطًا في السرعة، وهذا لا يفعله إلا من يصب اهتمامه على الانتهاء من كمٍّ بغض النظر عن كيفية إنجاز هذا الكم؛ يقول الإمام النووي (رحمه الله): «(هَذّاً كهذِّ الشعر) معناه: أن الرجل أخبر بكثرة حفظه وإتقانه، فقال ابن مسعود: تهذُّه هذّاً»[2].

والاهتمام بالإحصاء والكم واضح كذلك في إحصاء جماعة حلقة المسجد لتكبيرهم وتهليلهم وتسبيحهم بالحصى، وقول ابن مسعود (رضي الله عنه) لهم: «فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء» إشارة إلى أن الانحراف لم يقتصر فقط على ابتداع صيغة عبادية لم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أصحابه، ولكن أيضًا في كونهم يهتمون بإحصاء العبادة ويحفلون بالكم الظاهر، وكأنهم يعتقدون أنهم بهذا الإحصاء يضمنون ألا يضيع ثوابها، إضافة إلى العُجب بالعمل دون تحقيق

(١) فتح الباري، جـ١٢، ص٢٨٩ .

(٢) شرح النووي على مسلم، جـ٦، ص١٠٤ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

تطهير البواطن وتزكية النفوس.

* وقد يظن ظان أن مجرد الاجتهاد في العبادة سمة من سمات الخوارجيين، فيَسِم كل من يجتهد في العبادة في واقعنا بأنه منهم، وليس الأمر كذلك، فالمقارنة الموجودة في قوله ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم» موجهة إلى صلاة الصحابة وصيامهم، أي: إن عبادة الصحابة هي الميزان الذي ينبغي أن تقارن به عبادة المجتهد وليست عبادة أي مفرط أو متهاون في عبادته في هذه الأزمان.

كما إن العبادة الحقيقية طريق من طرق التزكية التي يفتقدها الخوارجيون، والذي يفرق عبادة الخوارجيين عن غيرهم ليس فقط زيادة الكم عند الخوارجيين، بل خلو هذا الكم من الإخبات والتبتل وصلاح الباطن، وأيضًا: الاعتداد بهذا الكم والعجب به أمام النفس والتفاخر به أمام الناس، فهنا موطن الخلل الذي يخالف المنهج النبوي في التزكية والتربية.

فالمنهج النبوي يشير إلى أن العبرة في العبادة ليست بمجرد الطول والقصر أو (الكَم)؛ يوضح ذلك ما ورد في حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، الذي فيه: «.. أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي جارًا يقوم الليل ولا يقرأ إلا ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ ـ كأنه يقللها ـ، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[1]، بل إنه ﷺ ـ رغم عِظَم عبادته التي لا يدانيه فيها أحد من البشر ـ قد يقوم الليل بآية واحدة يرددها، فعن أبي ذر (رضي الله عنه)، قال: «قام رسول الله ﷺ حتى أصبح بآية، والآية: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [**المائدة**: ١١٨]»[2].. بينما ذلك

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل، ح/ ١١٤١٠، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٢) أخرجه: النسائي وابن ماجه وأحمد بن حنبل، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، ح/ ١٢٠٥.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

هو منهج الرسول ﷺ في التزكية (النظر إلى الأثر والكَيْف وليس الإحصاء والكم) نجد الخارجي يفتخر متشدقًا بأنه (يقرأ المفصل في ركعة)، ولذلك كان جواب من تربى التربية النبوية عليه: «هَذّاً كَهَذِّ الشعر، إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»، ولم يهزه كمُّ القراءة ولم يتلجلج لكونها قراءة من كتاب الله؛ لأنه يعلم أن المقصود منها ـ كثرت أو قلّت ـ ينبغي ألا يكون الإحصاء والكم، بل: «إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»(١).

* اختلال النسق الإيماني كمًا ونوعًا:

ويظهر ذلك في مظهرين أساسيين: قوة التدين إلى حد الغلو المؤدي إلى الخروج منه، وشيوع الورع الكاذب في نمط التدين:

* **أما المظهر الأول،** فقد وردت في الأحاديث الواصفة للخوارج صفتان تسترعيان الانتباه والملاحظة: الأولى: قوة دخولهم في الدين وتعمقهم فيه، والثانية: قوة خروجهم منه وعدم إصابتهم شيء منه، والصفتان مرتبطتان ببعضهما رغم تباعدهما في الظاهر.

يوضح ذلك قوله ﷺ في بعض روايات حديث ذي الخويصرة، عن

---

(١) من بديع الإشارات القرآنية: أن دعوة نبي الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) لهذه الأمة كانت: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [**البقرة**: ١٢٩]، فاستجاب الله (سبحانه وتعالى) للدعوة وامتن على هذه الأمة، حيث قال (سبحانه): ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [**آل عمران**: ١٦٤]، وأنه ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [**الجمعة**: ٢]، فبعد ﴿ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ** ﴾ ـ في آيتي الاستجابة ـ قدَّم الله (سبحانه وتعالى) ﴿ **وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ على ﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾.

وانظر قريبًا من ذلك المعنى: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، جـ١، ص٣٨٧ .

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

عبد الله بن عمرو[1]: «. . . فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ألا نقتله؟، قال: لا، دعوه؛ فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية. . .»[2]، ولاحظ هنا تعلق الخروج من الدين بالتعمق فيه!.

وفي أحاديث أخرى كثيرة ورد تعبير آخر، ولكنه يتضمن المعنى نفسه، منها: ما جاء عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك (رضي الله عنهما)، أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفُرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فُوقه»[3].

ففي قوله ﷺ: «يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية» ما يتفق مع ما ذُكر من كونهم يدخلون في الدين بقوة، ويخرجون منه بقوة أيضًا؛ يوضح ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) بقوله: «. . (فإنه سيكون لهذا شيعة يتعمقون في الدين، يمرقون منه ـ الحديث) أي: يخرجون من الإسلام بغتة، كخروج السهم إذا رماه رامٍ قويُّ الساعد، فأصاب ما رماه، فنفذ منه بسرعة بحيث لا يعلق بالسهم ولا بشيء منه من المرمى شيء، فإذا التمس الرامي سهمَه وَجَدَه ولم يجد الذي رماه، فينظر في السهم ليعرف هل أصاب أو أخطأ، فإذا لم يره علق فيه شيء من الدم ولا غيره ظن أنه لم يُصِبْه، والفرض أنه أصابه، وإلى ذلك أشار بقوله: سبق الفرثَ والدمَ؛ أي: جاوزهما ولم يتعلق فيه منهما شيء، بل خرجا بعده (. . .)، كذلك هؤلاء: لم يتعلقوا بشيء من الإسلام»[4]، فالحديث النبوي شبه قوة دخولهم في الدين وقوة

(١) وفي الباب أيضًا عن أبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك.

(٢) مسند الإمام أحمد، ح/٧٠٣٨، جـ٢، ص٢١٩، وصححه الشيخ الأرناؤوط.

(٣) أخرجه: أبو داود، والحاكم في مستدركه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ح/ ٣٦٦٨، وصحيح سنن أبي داود، ح/ ٤٧٦٥ .

(٤) فتح الباري، جـ١٢، ص٢٩٤ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

خروجهم منه بقوة دخول السهم في الرمية وقوة خروجه منه.

وقد ذكر العلماء عدة معانٍ في المراد بالخروج من الدين، والذي رجحه الحافظ ابن حجر (رحمه الله) أن المراد هو خروجهم من الإسلام الكامل[1].

* ولكن، إذا أخذنا في الاعتبار أن الغلو أدى ببعض فرق الخوارج إلى الخروج من أصل الإسلام بالفعل، مثل من أنكر منهم الصلوات الخمس، وأحل نكاح بنات البنات وبنات أولاد الأخوة والأخوات، وأنكر سورة يوسف، وزعم أن من قال (لا إله إلا الله) فهو مؤمن عند الله ولو اعتقد الكفر بقلبه[2]. . وغير ذلك من صور المروق من الدين نفسه وليس فقط المروق من كمال الإسلام أو خروج على مجتمع المسلمين، فهل يفهم من هذه النتيجة: أن التعمق في الدين مذموم؟، أو أن التعمق في الدين يؤدي إلى الخروج منه؟.

لا نستطيع تصور الإجابة على هذا السؤال بغير استدعاء صورة التعمق عند الخوارجيين من ناحية النوعية والكيفية، واستدعاء المنهج النبوي في التعمق نوعًا وكيفًا أيضًا.

فأي نوع من التعمق اتصف به الخوارج؟ وأي نوع من التعمق مطلوب أن يتصف به المسلم؟.

إن شواهد الأحاديث والآثار وما ذكرناه من صفات الخوارجيين تشير إلى أن (نوعية) تعمقهم في الدين ليست تعمقًا في الفهم والتأمل والتدبر، ولا في التبتل والتزكي، بل زيادة تشدد في الإتيان بمظاهر خالية من الباطن المزكى، كالاهتمام بما لا طائل عمليّاً من ورائه، والتمحور حول الجزئيات، من قبيل: ﴿**مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ**﴾ أو (مِّن مَّاء غَيْرِ ياسِنٍ) في العلم، أو (خط خطًا للصلاة) في الالتزام والعمل، إضافة إلى الإكثار من هذه المظاهر والاهتمام بالتنمية الكمية

(١) انظر: فتح الباري، جـ٨، ص٦٩، وجـ١٢، ص٢٨٨ .

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، جـ١، ص١٢٨، وفتح الباري، جـ١٢، ص٢٨٥ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

في العبادة: كطول صلاة، وكثرة صيام، وإحصاء ذكر...

وقد فطن لهذا الانحراف ولم ينخدع به من شاهده من الصحابة، وأرشدوا تابعيهم أن هذا ليس هو طريق الاستقامة الصحيح، كما مر ذكره عن ابن مسعود (رضي الله عنه).. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه ذُكر عنده الخوارج واجتهادهم في العبادة، فقال: «ليسوا أشد اجتهادًا من الرهبان»[1]، أي: إن الاستقامة والانحراف لا تقاس بهذا المقياس.

فتعمق الخوارجيين في الدين قد يدخل فيما ذمه النبي ﷺ بقوله: «هلك المتنطعون»[2]، أي المتعمقون، الغالون، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم، وقوله ﷺ: «...وإن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني: الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون»[3]، وقد أوضح العلماء أن المتفيهق أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو بمعنى المتشدق؛ لأنه الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه؛ إظهارًا لفصاحته وفضله واستعلاءً على غيره؛ ولهذا فسره النبي ﷺ بالمتكبر في روايات أخرى.

فيلاحظ من الأحاديث الواردة في الخوارج أن تعمقهم في الدين ـ من الناحية الإيمانية ـ يفتقد إلى تنظيم طاقتهم الإيمانية وتوجيهها توجيهًا صحيحًا وإيجابيًا، والحفاظ عليها آمنة من الانحراف، ومستمرة ودفاقة لأبعد مدى.

والمنهج النبوي في هذا الجانب بخلاف منهج الخوارجيين؛ فقد رغَّب النبي ﷺ في التعمق في الدين، ولكن بصورة أخرى غير ما اهتموا به؛ كقوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُفَقِّهه في الدين»[4]، يفقهه وليس يُحَفِّظه ـ كما

(١) انظر: فتح الباري، جـ١٢، ص٢٨٩ .

(٢) أخرجه: مسلم، وأبو داود، وأحمد بن حنبل، وأبو يعلى.

(٣) أخرجه: أحمد بن حنبل، وابن حبان، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، جـ٣، ح/ ٢٦٦٢ .

(٤) أخرجه الشيخان، وغيرهما.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

سيأتي في الصفة التالية لهم ـ!، هذا في العلم.

وفي التزكية والحفاظ على انتظام الطاقة الإيمانية الحقيقية ـ وليست فقط المظهرية ـ متجددة دفاقة، يتضح منهج النبي ﷺ في عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»[1]، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عنه ﷺ، قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا...»[2]، وفي رواية أخرى للحديث نفسه: «سددوا، وقاربوا، وأَبْشِروا؛ فإنه لن يُدخل الجنة أحدًا عملُه[3]، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»، وعن عائشة (رضي الله عنها)، قالت: «كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقال: من هذه؟، قلت: فلانة، لا تنام بالليل، تَذْكُر من صلاتها، فقال: مَهْ، عليكم ما تطيقون من الأعمال؛ فإن الله لا يَمَل حتى تملوا»[4]، وعن بريدة الأسلمي (رضي الله عنه)، قال: «خرجت ذات يوم لحاجة فإذا أنا بالنبي ﷺ يمشي بين يدي، فأخذ بيدي فانطلقنا نمشي جميعًا، فإذا نحن بين أيدينا برجل يصلي، يكثر الركوع والسجود، فقال النبي ﷺ: أتراه يرائي؟، فقلت: الله ورسوله أعلم، فترك يدي من يده، ثم جمع بين يديه فجعل يصوبهما ويرفعهما، ويقول: عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا؛ فإنه مَن يشاد هذا الدين يغلبه»[5].

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح/٢٢٤٦ .

(٢) أخرجه السبعة ـ عدا ابن ماجه ـ.

(٣) أي: إن الأعمال الصالحة ـ حتى ولو كثرت ـ ليست هي الضامن لدخول الجنة، وراجع عبارة ابن مسعود (رضي الله عنه) مع حلقة المسجد الذين كانوا يحصون أعمالهم الصالحة.

(٤) أخرجه: السبعة ـ عدا الترمذي ـ، وابن حبان، والحاكم، وابن خزيمة، والبيهقي.

(٥) أخرجه: أحمد بن حنبل، والبيهقي، والحاكم، وصححه الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على المسند (ح/١٣٠٢٣، جـ٥، ص٣٥٠).

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

* **وأما المظهر الثاني** لاختلال النسق الإيماني، فإنه يشيع في الخوارج والخوارجيين التحري والتدقيق والتورع في أمور صغيرة، مقابل الجرأة والتهور والإقدام على انتهاك حرمات عظيمة، وهو ما يمكن وصفه بأنه نوع من الورع الكاذب؛ ومثال ذلك ما يروى عن التابعي أبي مِجلَز (رحمه الله) في مقتل الخوارج لعبد الله بن خباب (رحمه الله)، قال: «نهى عليٌّ أصحابَه أن يسطوا على الخوارج حتى يُحدثوا حدثًا، فمروا بعبد الله بن خباب فأخذوه، فمر بعضهم على تمرة ساقطة من نخلة، فأخذها فألقاها في فيه، فقال بعضهم: تمرة معاهد! فبم استحللتها؟، فألقاها من فِيه، ثم مروا على خنزير فنفخه بعضهم بسيفه، فقال بعضهم: خنزير معاهد! فبم استحللته؟، فقال عبد الله: ألا أدلكم على ما هو أعظم عليكم حرمة من هذا؟، قالوا: نعم، قال: أنا، فقدموه فضربوا عنقه. . .»[(١)].

* القصور في الاستدلال، وضعف التفقه والتدبر:

ويدل على ذلك: ما ورد عن علي (رضي الله عنه)[(٢)]، وفيه ـ مرفوعًا ـ: «. . . يقرؤون القرآن، يحسبون أنه لهم، وهو عليهم. . .»، أي: يحسبون أنه دليل لهم على رأيهم ومذهبهم، أو حجة لهم عند الله، وفي حديث آخر عن علي (رضي الله عنه) أيضًا: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثًا فلأن أخِرَّ من السماء أحب إليَّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإنما الحرب خدعة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم»[(٣)]، وفي الحديث

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم/ ٣٧٨٩٣، جـ٧، ص٥٥٤، وانظر: سنن البيهقي الكبرى، رقم/ ١٦٥٤٤، جـ٨، ص١٨٤، وسنن الدارقطني، رقم/ ١٥٦، جـ٣، ص١٣١ .

(٢) أخرجه: مسلم، وأبو داود، والبيهقي.

(٣) أخرجه: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأحمد بن حنبل، والبيهقي.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الآخر في صفتهم: «. . . يحسنون القيل، ويسيئون الفعل. . .»[1].

وهذا القصور والضعف واضح في منطق رأسهم ذي الخويصرة، فلو أنه تدبر قليلاً في فعل رسول الله ﷺ لعلم أن رسول الله ﷺ لم يأخذ هذه العطايا لنفسه ولا أعطاها لقرابته أو أحبابه وأصفيائه من المهاجرين والأنصار حتى تكون شبهة عدم عدل، فلم يَبْقَ إلا أن يكون ذلك التصرف روعيت فيه مصلحة أعلى مما توهمه عدلاً، هي ما بينه الرسول ﷺ حين اعتُرِض عليه ـ قبل أن يخرج ذو الخويصرة بمقولته ـ: «إنما أتألفهم» كما ورد في بعض الروايات[2]، فالعطاء لا تراعى فيه أولويات ذوي الحاجات فقط ـ كما توهم ذو الخويصرة ـ، بل إنما هو بحسب مصلحة دين الله، فما كان لله أطوع ولدين الله أنفع كان العطاء فيه أولى، ولو تدبر ذو الخويصرة لَعَلِمَ أن تحديد تفاصيل العدل ليس راجعًا إلى ما يظنه هو، بل إلى صاحب الحق في التشريع الذي يبلغ عنه رسول الله ﷺ، وأن الله (عز وجل) لا يقر رسوله على ظلم ـ على افتراض تصور وقوع الظلم منه ﷺ ـ، وأن العدل لا يعني بالضرورة المساواة.

وعلى سوء التأويل الناتج عن ضعف التدبر والتفقه سار أتباعه، يقول الإمام النووي (رحمه الله): «قوله ﷺ: (يقولون من خير قول البرية)، معناه: في ظاهر الأمر؛ كقولهم (لا حكم إلا لله) ونظائره من دعائهم إلى كتاب الله (تعالى)»[3]، ويقول الشيخ عبد الغني المجددي الدهلوي: «(يقولون من خير قول الناس)، أي: أقوالهم بظاهرها خير وحسن، لكن مخالف لعقائدهم وأعمالهم، ولذا قال لهم علي (رضي الله عنه)، حين قال بعضهم (لا حكم إلا لله): كلمة حق

(١) أخرجه: أبو داود، والحاكم في مستدركه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ح/ ٣٦٦٨، وصحيح سنن أبي داود، ح/ ٤٧٦٥ .

(٢) أخرجها: البخاري، ومسلم، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) شرح النووي على مسلم، جـ٧، ص١٦٩ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

أريد بها الباطل، أي: نحن نؤمن بتلك الكلمة، ولكن لا نؤول على ما تأولتم به»[1]، ويقول المباركفوري (رحمه الله): «.. وكانت أول كلمة خرجوا بها: قولهم (لا حكم إلا لله)، وانتزعوها من القرآن، وحملوها غير محملها»[2].

ويقول ابن عبد البر (رحمه الله): «.. وكان للقوم صلاة بالليل والنهار وصيام يحتقر الناس أعمالهم عندها، وكانوا يتلون القرآن آناء الليل والنهار، ولم يكن يتجاوز حناجرهم ولا تراقيهم؛ لأنهم كانوا يتأولونه بغير علم بالسنة المبينة، فكانوا قد حُرِموا فهمه والأجر على تلاوته..»[3].

ويقول ابن تيمية (رحمه الله) عن الخوارج: «.. لكنهم جهلوا وضلوا في بدعتهم، ولم تكن بدعتهم عن زندقة وإلحاد، بل عن جهل وضلال في معرفة معاني الكتاب»[4]، وفي موضع آخر يقول عنهم: «... وهؤلاء غلوا في العبادات بلا فقه، فآل الأمر بهم إلى البدعة..»[5].

فواضح من كلام هؤلاء العلماء أن في منطق الخوارجيين تعسفًا في الاستدلال رغم حيازتهم نصوص الأدلة الشرعية، وفي إشارة الحافظ ابن حجر بقوله: «(لا يجاوز حناجرهم)، قال الداودي: يريد أنهم تعلقوا بشيء منه، قلت: إن كان مراده بالتعلق الحفظ فقط دون العلم بمدلوله فعسى أن يتم له مراده...»[6] ما يفهم منه أن من صفات الخوارجيين الاهتمام بالحفظ فقط دون الاهتمام بالعلم بالمدلول.

فألفاظ الأحاديث التي أوردتها هنا وأقوال العلماء التي أعقبتها، تدور حول معاني متقاربة، مفادها: أن الخوارجيين على المستوى الفكري: لا ينقصهم

(١) إنجاح الحاجة ـ شرح سنن ابن ماجه، جـ١، ص١٥ .
(٢) تحفة الأحوذي، جـ٦، ص٣٥٤ .
(٣) التمهيد، جـ٢٣، ص٣٢٣ .
(٤) منهاج السنة النبوية، جـ١، ص٦٧ .
(٥) مجموع الفتاوى، جـ١٠، ص٣٩٢ .
(٦) فتح الباري، جـ٩، ص١٠٠ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الدليل ولكن ينقصهم صحة الاستدلال، وأن اهتمامهم ينصب على الحفظ والاستظهار دون الفقه في الدليل وصحة الاستنباط، ولعل ذلك راجع إلى سِمَتين رئيسيتين في الشخصية الخوارجية مر ذكرهما سابقًا:

السمة الأولى: التركيز على الإحصاء والكم دون المعاني والكَيْف، وهذا مما يعوق عملية التدبر والتأمل؛ يقول ابن حجر (رحمه الله) في معنى قول ابن مسعود (رضي الله عنه) «هذّاً كهذِّ الشعر»: «قال الخطابي: معناه: سرعة القراءة بغير تأمل كما ينشد الشعر»[1]، ويقول المباركفوري في معنى قوله الآخر «ينثرونه نثر الدقل»: «أي: يرمون بكلماته من غير رَوِيّة وتأمل كما يرمى الدقل ـ بفتحتين ـ وهو رديء التمر»[2].

السمة الثانية: اهتمامهم بالمظاهر الخارجية دون تزكية البواطن والاعتناء بها؛ فالتأمل والتدبر والتفكر ـ التي ينتج عنها التفقه ـ أعمال داخلية (باطنية) لا تظهر بذاتها وإن كانت آثارها قد تكون ظاهرة بعد ذلك، وهذه السمة السلبية هي التي تُنتِج بعد ذلك منهجية (القص واللصق) في البحث العلمي دون التأمل والتدبر والتفقه.

ومع الاهتمام بالإحصاء والكم والافتقار إلى التفقه والتدبر والتأمل في أعمال الفكر والعلم، نجد أنه يشيع في الأوساط الخوارجية ـ بجانب منهجية (القص واللصق) ـ استعمال المعيار الكَمِّي لقياس المقدرة العلمية والفكرية لشخص ما والمقارنة بينه وبين غيره، فتقاس عندهم مكانة الشخص العِلمية بعدد المتون التي حفظها وعدد صفحات المطولات التي قرأها وعدد المؤلفات أو المحاضرات التي أخرجها، وليس بمقدار الاستيعاب والفهم والتفقه ونوعية مخرجاته.

* والملاحظ أن الاكتفاء بالحفظ والاهتمام بالكم والإحصاء دون الفقه

(١) فتح الباري، جـ٩، ص٩٠ .

(٢) تحفة الأحوذي شرح صحيح الترمذي، جـ٣، ص١٧٧ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

والتدبر في الجانب العلمي والفكري، خلاف ما نوه به رسول الله ﷺ وحث عليه؛ ففي صحيح البخاري[1] ـ من حديث خطبة الوداع ـ أن رسول الله ﷺ قال: «.. فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مُبَلَّغ أوعى من سامع»، وفي الحديث الآخر الصحيح عن زيد بن ثابت (رضي الله عنه)، أن رسول الله ﷺ قال: «.. نضر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره؛ فإنه رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه..»[2]، وفي الباب بمعناه عن غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، والحديثان يدلان على أن غاية العلم ليست الحفظ والاستظهار فقط، بل التبليغ والفقه؛ فهما ما يقودان إلى العمل والعبودية لله (عز وجل).

ولكن العجيب أن هذين الشاهدين أُعقِبا بنصائح نبوية لها علاقة بصفات تقترب من صفات الخوارج أو أفعالهم؛ ففي الحديث الأول أعقب رسول الله ﷺ قوله «فرب مُبَلَّغ أوعى من سامع» بقوله: «فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، والحديث الآخر أُعقب بقوله ﷺ: «ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبدًا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة».

ولو اقتصر الأمر على الحفظ والاستظهار فقط، لما كان ذلك مأخذًا على من فعله؛ فإن حفظ النصوص مما يمدح عليه الشخص ـ ولو كانت مرتبته أقل ممن حفظها وفقهها ونشرها ـ، وهذا ما يدل عليه حديث الرسول ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله (عز وجل) به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منه طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها

(١) ومسلم، والترمذي، وأحمد بن حنبل، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم.
(٢) أخرجه: الترمذي، ح/٢٦٥٦، جـ٥، ص٣٣، وأبو داود،ح/ ٣٦٦٠، جـ٣، ص٣٢٢، وأحمد بن حنبل، ح/ ٢١٦٣٠، جـ٥، ص١٨٣، وصححه الشيخ الألباني والشيخ الأرناؤوط.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[(١)].

أما الاقتصار على القراءة والحفظ دون الفهم والعمل ـ والفهم والفقه هو الذي يقود للعمل ـ، فإنه أقرب إلى فعل أهل الكتاب الذين قال الله (تعالى) فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]، يقول ابن تيمية (رحمه الله): «. . . فعن ابن عباس وقتادة، في قوله ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم، ولا يدرون ما فيه، وقوله: ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾، أي: تلاوة؛ فَهُم لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم . . .»[(٢)].

ويقول الإمام القرطبي (رحمه الله): «. . وينبغي له [أي: حافظ القرآن] أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟!، وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه!، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا»[(٣)].

وما أشار إليه الإمام القرطبي (رحمه الله) يقربنا كثيرًا من مكمن الداء في

---

(١) أخرجه: البخاري (ح/٧٩)، ومسلم (ح/٢٢٨٢)، وأحمد بن حنبل (ح/١٩٥٨٨، جـ٤، ص٣٩٩)، وانظر شرح الحديث في: شرح النووي على صحيح مسلم، جـ١٥، ص٤٧ـ٤٨، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، جـ٢، ص٧٩، والوابل الصيب، لابن القيم، ص٧٢، ومفتاح دار السعادة، له أيضًا، ص٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى، جـ١٧، ص٤٣٤ .

(٣) تفسير القرطبي، جـ١، ص٥٣ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

سلوك الخوارجيين في هذا الجانب، وهو: اختلال العلاقة بين: السماع والحفظ، والفهم والفقه، والعمل والتنفيذ. . فالسماع والحفظ هو البداية، والعمل والتنفيذ هو الغاية، والفهم والفقه هو الوسيط بينهما، وعندما يسقط ـ أو يضعف ـ الفهم والفقه فإن العلاقة بين البداية والغاية تكون علاقة مباشرة ومبتسرة، فالاغترار بحفظ النصوص وقراءتها ـ والعُجب من سمات الخوارجيين ـ، مع عدم الفقه والقصور في الاستدلال، يقودهم تلقائياً إلى العمل بما يتفق مع طباعهم ويتبادر إلى ذهنهم رغم هذا القصور والنقص في الفهم والفقه، وهنا يظهر أثر صفاتهم النفسية وسماتهم الشخصية، ويقع الزلل والشطط ويظهر الغلو والانحراف في صورة سلوكيات عملية حادة وجازمة مستترة بغطاء من النصوص الشرعية، نتيجة وقوعهم في هذا الجهل الفقهي المركب عندما ظنوا أنهم فقهاء ما داموا يحوزون الدليل في صدورهم أو عقولهم، بينما هم في الحقيقة: «. . . يقرؤون القرآن، يحسبون أنه لهم، وهو عليهم. . .» ـ كما وصفهم الرسول ﷺ ـ.

فينبغي أن نلاحظ هنا: أن هناك فَرْقًا بين الحفظ المجرد ـ وهو ما أشار إليه الرسول ﷺ في الأحاديث السالف ذكرها ـ، وبين الحفظ مع الاستدلال الخاطئ والقصور في الفقه، ثم استنباط أحكام شرعية منها مع الظن ـ أو القطع ـ بأن هذا مراد الله ورسوله، ثم بناء العمل على هذه الأحكام باعتبارها شرعًا منزلاً، وهذا ما وقع فيه الخوارجيون.

* الأحادية في الفكر، ونفي التنوع والاختلاف:

لا يختلف اثنان على أن لكل دين أصوله وخصائصه التي تميزه عن غيره من الأديان والمناهج والأيديولوجيات، وهكذا الإسلام: يختلف عن غيره من الأديان ويتميز عن غيره من المناهج الأرضية والأيديولوجيات الوضعية، فإذا تحدثنا عن اختلاف الإسلام مع غيره فإن الأصل في ذلك هو: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، و ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ**

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، وعلى هذا الأساس يُميز فريقان: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، و ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، لا بد من ذلك الوضوح ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فإذا تحدثنا عن الاختلاف والالتقاء بين الإسلام وهذه الدوائر الأخرى فإنه يكون اختلاف تضاد، لا سبيل لإزالته إلا بالانتقال من دائرة إلى أخرى، بغض النظر عن الاشتراك أو التشابه في بعض الجزئيات، ومن ثم: تكون العلاقة الحوارية بين هذه الدوائر علاقة دعوية قائمة على الاعتراف بوجود هذا الاختلاف: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولكن داخل الدائرة الواحدة وتحت مظلة مرجعية الإسلام وحده قد تختلف الأفهام وتتنوع الاجتهادات ويوجد الاختلاف بين المنتمين إلى هذه الدائرة وهذه المظلة، وهذا أمر طبيعي ـ أو هكذا ينبغي أن يكون ـ بين البشر، وهذا ما رأيناه في تاريخ الاعتدال في الأمة.

وبينما نرى شيوع احترام الآخر المخالف وعدم تسفيهه والتعالي عليه بين معظم علماء الأمة، الذي عبر عنه بعضهم بالعبارة الشهيرة: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب»[(١)]، وهي العبارة التي تحمل في طياتها وجود هامش من احتمال تخطئة النفس وتصحيح رأي الآخرين،

(٩٨) انظر مثلاً: الفتاوى الفقهية الكبرى، لابن حجر الهيتمي، جـ٤، ص٣١٣ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

كما تحمل نظرة إيجابية إلى المخالف لهم في الرأي والاجتهاد. . نرى أن الشخصية الخوارجية تنأى عن هذه الروح، بل تعدها مذمة ومنقصة، وأعتقد أن ذلك انعكاس لعلاقة متبادلة بين ضيق الأفق وضيق الصدر.

فسعة أفق ـ وليس فقط سعة علم ـ هؤلاء العلماء، الناتج عن انفتاحهم على محيطهم الخارجي، جعلهم ينظرون في أي مسألة مطروحة للاجتهاد والنظر من أكثر من جانب وزاوية، ويجدون فيها أكثر من دليل، وينظرون في كل دليل فيجدون فيه أكثر من وجه وأكثر من دلالة[1]، ورغم أنهم يرجحون دليلاً أو أدلةً ما ووجهًا أو دلالة ما، إلا أن سعة الأفق هذه تولد عندهم سعة صدر تجعلهم ينظرون إلى المخالف لهم في الاجتهاد نظرة تسامحية قائمة على القبول له وعدم الحط منه ومن رأيه؛ لأنهم يعلمون أن لرأيه وِجهة، وأن رأيهم هم مظنون حتى مع اعتمادهم له رأيًا راجحًا صحيحًا.

(١) وإلى ذلك المعنى يشير ما روي عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) مخاطبًا تلميذه أبا قلابة: «لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا كثيرة»، (أخرجه: عبد الرزاق في مصنفه، رقم/ ٢٠٤٧٣، جـ١١، ص٢٥٥، وابن أبي شيبة، رقم/ ٣٠١٦٣، جـ٦، ص١٤٢، وانظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، جـ١، ص٤٥٤، وجـ٢، ص١٥٤).
يقول السيوطي ـ تعليقًا على هذا الأثر ـ: «. . وقد فسره بعضهم بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة فيحمله عليها ـ إذا كانت غير متضادة ـ ولا يقتصر به على معنى واحد، وأشار آخرون إلى أن المراد به استعمال الإشارات الباطنة وعدم الاقتصار على التفسير الظاهر» (الإتقان في علوم القرآن، جـ١، ص٤٠٩).
وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه)، أنه قال: «من أراد العلم فليُثَوِّر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين» (أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم/ ٨٦٦٦، جـ٩، ص١٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٩٦٠، جـ٢، ٣١٣، وذكر الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٦٩) أنه أخرجه أيضًا: سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح).
ومعني يُثوِّر: يقلِّب، أي: «. . . يُفكّر في معانيه وتفسيره وقراءته»، (النهاية في غريب الأثر، جـ١، ص٢٢٩).

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

بينما في الشخصية الخوارجية يولد غياب التفقه والتدبر والتأمل، الناتج عن الانشغال بالظواهر والمظاهر والاحتفال بالكم على حساب الكَيْف، يولد ذلك تصلدًا فكريّاً يتحول لاحقًا إلى منهجية فكرية وعلمية.

كما يولِّد الانغلاق على الذات الذي تعيشه الشخصية الخوارجية نتيجة لاعتقادها في نفسها الطهر التام واعتقادها في غيرها أنه على الرجس التام.. يولد ضيق أفق ومحدودية تصور.

فإذا استحكم ضيق الأفق وتفاعل مع التصلد الفكري في الشخصية الخوارجية، فإن الشخص المصاب بها لن يرى في المسألة المطروحة إلا جوانب محدودة هي التي يهتم بها، وأدلة محدودة هي التي يعرفها، ولا يرى في هذه الأدلة إلا أوجه دلالة محدودة هي ما ذهب إليه ورجحه هو، ويتحول العالَم حوله إلى (أبيض وأسود) بلا درجات ولا أطياف، فيخلط في جوانب المسألة، ويقطع بخطأ كل وجه ودلالة جاءت على خلاف (الأبيض) الذي عرفه وارتآه، وينظر إلى رأيه نظرة يقينية غير محتملة ولا مظنونة، وينظر كذلك إلى رأي مخالفه نظرة يقينية غير محتملة ولا مظنونة، ولكن في خطئه، فيولد ذلك ضيق صدر بهذا المخالف الذي لا يَقْبَل الحق الواضح البين الذي لا يحتمل غيره ـ كما يراه الخوارجي ـ، ثم لا يعزو ذلك إلى اختلاف العقول والأفهام ونسبية الوصول إلى الحقيقة في مثل هذه المسائل الاجتهادية، بل إلى الهوى وعدم الرغبة في الانقياد والاستسلام، أي: الاتهام في التجرد والإخلاص وليس في العلم والفهم، ويساعد على هذا الاتهام: عدم استحضار الفرق بين الخطأ والخطيئة.

فالأثر السلبي للقصور في الاستدلال وضعف التفقه والتدبر لم يقتصر على شخص الخوارجي فقط، بل تعداه إلى علاقته مع غيره، حيث نجد أن هذا الأثر ولّد حالة من التَّوَحُّد[1] (الفكري)؛ ينظر فيها الخوارجي إلى نفسه على

(١) مرض (التوحد) هو: إعاقة في النمو تستمر طيلة عمر الفرد، وتؤثر على الطريقة التي=

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

أنه وحده العالَم، ولا يرى فيها الآخرين واجتهاداتهم من حوله؛ مما يؤثر ذلك على نظرته إليهم وسلوكه تجاههم.

ولجنوح الخوارجي إلى تبني منظومة (الأبيض والأسود بلا درجات) فإنه ـ غالبًا ـ يختزل منظومته الفكرية في فكرة أحادية يدور ويتمحور حولها ويعدها باب الولوج إلى ما يتبناه، ويختزل أيضًا مواقف الآخرين وآراءهم في موقف أو قول ـ وقد يكون مظنونًا أو محتمَلاً ـ مع هدر مواقفهم وآرائهم الأخرى.

* ولكن، هل تعني صحتنا النفسية واستقامتنا السلوكية وسلامتنا من أمراض الشخصية الخوارجية.. أن نترك قناعاتنا ونذوب في نسيج المجتمع المحيط بنا، أو ألا يحدث اختلاف بيننا في الآراء؟.

بالطبع لا؛ فطبيعي أن يبني كل شخص آراءه على قناعاته الذاتية ويتمسك بما يراه صحيحًا ويدافع عنه، فقد ذم الله (عز وجل) اتباع المشركين لآبائهم وعلمائهم وسادتهم بينما مدح اتباع المؤمنين، وأحد الفروق الجوهرية في منهج اتباع كل فريق أن اتباع المشركين اتباع تعصبي غير مبني على علم وقناعة

=يتحدث بها الشخص ويقيم صلة بمن حوله. ويصعب على المصابين بالتوحد إقامة صلات واضحة وقوية مع الآخرين، وعادة تكون مقدرتهم لتكوين صداقات ولفهم الكيفية التي يعبر فيها الآخرون عن مشاعرهم مقدرة محدودة.

ويشترك كل المصابين بهذا المرض في صعوبة فهم معنى الحياة، وغالبًا ما تواجه المصابين بالتوحد ثلاثة أنواع رئيسية من الصعاب:

* **التفاعل الاجتماعي**: صعوبة في إقامة العلاقات الاجتماعية، كأن يبدو الشخص متحفظًا وغير مبال بالآخرين.

* **الاتصال الاجتماعي**: صعوبة في الاتصال الشفهي والاتصال غير الشفهي؛ كعدم فهم معنى الإيماءات الشائعة وتعابير الوجه ونغمات الصوت.

* **الخيال**: صعوبة في تنمية الخيال واللعب مع الآخرين، كأن يكون لديه عدد محدود من الأنشطة الخيالية، ومن المحتمل أن تكون منسوخة ومنتهجة بطريقة صارمة ومتكررة.

بالإضافة إلى هذه الثلاثية، يعتبر نمط التصرف المتكرر ومقاومة أي تغيير في الروتين اليومي صفات مميزة لهذا المرض في أغلب الأحيان.

(منقول بتصرف يسير عن: http://www.multikulti.org.uk/ar/health/what-is-autism/)

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

مجردة وذاتية، فهم يتبعون ـ غالبًا ـ لمجرد المتابعة والعصبية والحَمِيَّة، بينما في اتباع المؤمنين تسبق القناعة الفكرية والإيمانية العلاقة الإنسانية بين التابع والمتبوع، فيقوم الاتباع على العلم والبصيرة وليس على الحميَّة والتعصب[1]، وقد نهى الرسول ﷺ عن المتابعة العمياء ومسايرة الجماعة المحيطة بلا وعي أو قناعة، فقال ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[2].

وطبيعي أن يحدث اختلاف بين البشر؛ نتيجة اختلاف الأفكار والقناعات، بل والميول والأهواء والمصالح، فالاختلاف سنة كونية بين البشر ـ مع إقرارنا أن السعي لإزالته مقصد شرعي ـ، وقد وقع الاختلاف بين أفضل جيل ظهر في

(١) يمكنك مقارنة الآيات الواردة في اتباع كل فريق لتتضح لك هذه الحقيقة، ونورد هنا نموذجين من هذه الآيات ليتضح المقصود:
ففي اتباع المشركين لآبائهم يقول الله (تعالى): ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ [**لقمان**: ٢١]، وفي اتباع المؤمنين لآبائهم يقول الله (عز وجل) حاكيًا عن يوسف (عليه الصلاة والسلام): ﴿**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾ [**يوسف**: ٣٨].
فواضح في الآية الأولى أن الاتباع هو بالأساس للآباء على أي شيء كانوا ومن غير معرفة بالضرورة بما هم عليه ولا صحته من صوابه ﴿**مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ حتى ولو ﴿**كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾، أما في الآية الأخرى فإن الاتباع بالأساس لـ(ملة) الآباء التي يعرفها يوسف (عليه الصلاة والسلام) جيدًا ويعرف كنهها ﴿**مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾، ولذلك فقد بدأ من الآباء بإبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وليس بأحد قبله؛ لأنه آخر السلسلة المتصلة في آبائه الذين على هذه الملة.
وانظر جواب ابن تيمية (رحمه الله) لرجل سأل: «إذا كان المسلمون مقلدين والنصارى مقلدين واليهود مقلدين: فكيف وجه الرد على النصارى واليهود وإبطال مذهبهم والحالة هذه؟، وما الدليل القاطع على تحقيق حق المسلمين وإبطال باطل الكافرين؟» في مجموع الفتاوى، جـ٤، ص١٩٧ .

(٢) أخرجه الترمذي، ح/ ٢٠٠٧، جـ٤، ص٣٦٤ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

تاريخ البشر، جيل الصحابة (رضي الله عنهم)، ولكن، ما هي موضوعات الخلاف بينهم؟ وكيف كانت العلاقة بينهم حتى عندما وصل الخلاف إلى أشد صوره قسوة؟.

كان الصحابة ـ وسلف الأمة الصالحين عمومًا ـ ينكرون الاختلاف ويفرون منه ولا يسعون إليه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وكان اختلافهم في الفروع أو في أمور اجتهادية، وعندما اختلفوا فإنهم اختلفوا اضطرارًا، وعندما وقع الخلاف بينهم بالفعل فإنهم كانوا محافظين أشد المحافظة على مظهر الوحدة بعيدين كل البعد عما يفرق الكلمة ويصدع الصفوف؛ فمن المعلوم أنه كان فيهم مثلاً: من يرى مشروعية الجهر بالبسملة ومن يرى عدم مشروعيته، وفيهم من يرى استحباب رفع اليدين ومن لا يراه، وفيهم من يرى نقض الوضوء بمس المرأة ومن لا يراه.. ومع ذلك: فلم يقل واحد منهم ببطلان صلاة مخالفه أو فسادها لأمر من ذلك، بل كانوا يصلون جميعًا وراء إمام واحد، ويرون أن دفع مفسدة الخلاف أولى من جلب مصلحة إنفاذ رأيهم الراجح؛ قال ابن القاسم: «قلت لمالك: إنه يلينا قوم يرون خلاف ما ترى في السهو، يرون أن ذلك عليهم بعد السلام، فيسهو أحدهم سهوًا يكون عندنا سجود ذلك السهو قبل السلام، ويراه الإمام بعد السلام فيسجد بنا بعد السلام، قال: اتبعوه؛ فإن الخلاف أَشَرّ»[1].

يقول الإمام ابن تيمية (رحمه الله): «ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر، ثم صلى خلفه متمّاً وقال: الخلاف شر»[2].

(١) المدونة الكبرى، جـ١، ص٢٢٢ .

(٢) مجموع الفتاوى، جـ٢٢، ص٤٠٧، والقواعد النورانية الفقهية، ص٢١، وأثر ابن مسعود (رضي الله عنه) أخرجه أبو داود والبيهقي في الكبرى وأبو يعلى، بسند ضعيف.

حُمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ولا يعني ترك ابن مسعود (رضي الله عنه) العمل الراجح عنده لأجل مصلحة أعلى أنه ترك قناعته به، ففرق بين ترك القناعات والعدول من الراجح إلى المرجوح في الفعل والعمل، فما دام الأمر ليس في حل وحرمة قاطعة أو صحة وخطأ بيِّن فمراعاة التألف والنفور من الخلاف أولى، ومن المعروف أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم يرجح بعض اجتهادات أبي بكر (رضي الله عنه) وقت خلافته، ورغم ذلك فقد تابعه فيها، ثم أنفذ اجتهاده الشخصي وما يراه راجحًا عندما آل إليه الأمر.. فمنهج السلف في ذلك كان الموازنة بين المصالح والمفاسد، والموازنة بين المفاسد الكبرى والصغرى، كما هو معروف وصِيغَ في صورة قواعد فقهية تحقق مقاصد الشريعة.

بل لو وصل الأمر إلى حل وحرمة قاطعة أو صحة وخطأ بيِّن فإنه تراعى أيضًا مصلحة التآلف وعدم الاختلاف بين المسلمين مع التمسك بالرأي الصحيح وإنفاذه والدعوة إليه، وهذا ما فعله ابن مسعود (رضي الله عنه) نفسه ـ كما ورد في آثار أخرى ـ؛ فقد ذكر التابعي عمرو بن ميمون أنه كان حريصًا على مصاحبة أفقه الناس، فصحب بعد موت معاذ بن جبل (رضي الله عنه) عبدَ الله بن مسعود، يقول ابن ميمون: «... فسمعته يقول: عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة، ويرغِّب في الجماعة، ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيَلِي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة، قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثونا!، قال: وما ذاك؟، قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول لي: صلِّ الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة؟!، قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية!، تدري ما الجماعة؟، قال: قلت: لا، قال: إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة! [أي: الجماعة الفاسدة]، الجماعة: ما وافق الحق وإن كنت وحدك»[1]، وقريب من هذا الموقف ما اتخذه

(١) تهذيب الكمال، جـ٢٢، ص٢٦٤ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

نبي الله هارون (عليه الصلاة والسلام) حين عبد بنو إسرائيل العجل، فقال عندما أنكر عليه موسى (عليه الصلاة والسلام) لحوقه به عند وقوع تلك الكارثة: ﴿ ... **إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [طه: ٩٤][(١)].

ومن ناحية أخرى نلاحظ أنه عندما وصل الخلاف بين بعض الصحابة إلى أشد درجات المصادمة، أي: القتال ـ وهو أمر محتمل في أي جماعة إنسانية ـ فإن العلاقة والرابطة الإيمانية بينهم لم تنقطع، بل ظلت كما وَجَّههم كتاب ربهم: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ٩ – ١٠]، وظلوا يعيشون تحت مظلة تمني الائتلاف وانتظاره والسعي إليه، وهذا ما فهمه الصحابة (رضي الله عنهم) وطبقوه؛ فعن علي (رضي الله عنه) قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾»[(٢)].

وعلى ذلك كان موقف أهل السنة من مخالفيهم من أهل القبلة قائمًا على رحمتهم وعدم التعالي عليهم أو تسفيههم والعدل معهم.

---

(١) استدل بعض الكتاب الصحفيين بهذه الآية على أنه يجوز التغاضي عن وجود الشرك والكفر والسكوت عنهما؛ لأجل مصلحة وحدة المجتمع الوطنية، وفاتهم أن هارون (عليه الصلاة والسلام) لم يسكت مع ذلك عن الشرك الذي وقع فيه بنو إسرائيل، بل أنذرهم وحذرهم منه ونهاهم عنه، وهذا ما ذكره القرآن في السورة نفسها: ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ [طه: ٩٠]، فالحوار بين موسى وهارون (عليهما الصلاة والسلام) لم يكن في الإنكار على الشرك والكفر ووجوب الدعوة إلى التوحيد؛ لأن ذلك حصل بالفعل، ولكن كان في المفارقة الجسدية لمن وقع في عبادة غير الله.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره، جـ١٤، ص٣٧، وابن أبي شيبة في مصنفه، ح/ ٣٧٨٢١، جـ٧ ص٥٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى، ح/ ١٦٤٩١، جـ٨، ص١٧٣ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ورغم أن اختلاف الصحابة (رضي الله عنهم) لم يكن في ثوابت الدين المنزلة والمحكمة، فإنا نجد أن الشخصية الخوارجية لا تفرق تفريقًا واضحًا صحيحًا بين الشريعة المنزلة والشريعة المؤوَّلة (الاجتهادية)، ولا بين الثوابت والمحكمات والقطعيات وبين المتغيرات والمتشابهات والظنيات، بل تعمد إلى رفع اجتهاداتها إلى درجة الثابت المطلق والمحكم والقطعي، ثم تعامل مخالفها في هذه الاجتهادات على أنه خالف الثابت والقطعي والمحكم في دين الله وليس في اجتهاداتها، فيُزاد في أصل الدين ما ليس منه، وهذه طامة كبرى لا تقل عن إنقاص الدين مما هو منه.

وعندما يسهل دخول ما ليس من الثوابت والأصول في ثوابت الدين وأصوله، فإنه يتبع ذلك عملية التصنيف، التي تتلوها التمييز، الذي يتلوه التحزيب ـ أو التفريق (من الفُرقة) ـ، الذي يمهد الطريق للإقصاء، الذي ينتج عنه التفتيت[1].

فحديثنا هنا إذن ليس في ترك القناعات أو المسايرة، ولا في وجود الاختلاف أو عدمه، ولكن في: ماهية موضوع الاختلاف، وفي أدب الخلاف وكيفية التعامل أثناءه، وفي طبيعة النظرة إلى المخالف، وفي الموقف منه بعد الاختلاف معه.

* المصادرة مع الوصاية على الآخرين:

ونتيجة لما سبق، ونتيجة أن الخوارجي معجب دائمًا بنفسه ويعتقد في آرائه ومعتقداته الطهر التام، وينظر إلى الآخرين بدونية وتنقص، فإنه يشيع بين الأوساط الخوارجية وجود تشوه في العلاقة الحوارية بين الخوارجي ومخالفه؛ حيث

(١) يقول ابن تيمية (رحمه الله): «وهذه حال أهل البدع: يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها. وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق ويرحمون الخلق» (مجموع الفتاوى، جـ٣، ص٢٧٩)، وانظر حول موقف أهل السنة من مخالفيهم من أهل القبلة: الرسالة نفسها له (رحمه الله)، وهي بعنوان: «قاعدة أهل السنة والجماعة: الاعتصام بالكتاب والسنة، وعدم الفُرْقة».

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

تكون دائمًا في اتجاه واحد: من الخوارجي إلى الآخر، وهي علاقة الأستاذ (المغرور) بالتلميذ، أو الأب (المتسلط) بالأبناء، وينتج عن هذا: شيوع (الوصاية) على الآخرين و(مصادرة) آرائهم، ونستطيع القول: إنه قد يكون للحق طريق واحد عند كثيرين من الناس، ولكنه عند الشخصية الخوارجية لا يحتمل إلا أن يكون طريقًا واحدًا ضيقًا لا يتسع لغير من هو على شاكلته، وباتجاه واحد دومًا، يقيم الخارجي عليه نقاط تفتيش فكرية يمارس فيها حق إصدار تصاريح المرور لمن دخل هذا الطريق ومخالفات التجاوز للمنحرفين عنه.

وينتج عن ذلك أن العلاقة الفكرية بين الشخصية الخوارجية ومخالفيها يندر أن تكون علاقة حوار طبيعي أو مناظرة (من النظر والبحث)، بل غالبًا ما تجنح إلى صورة المناظرة (من التناظر، بمعنى الندية)[1]، التي قد تتطور إلى مباهلة!، والفرق كبير بين الحوار والمناظرة بالمعنى الأول والمناظرة بالمعنى الآخر؛ فبينما في المعنى الأول يتم تبادل وجهات النظر من غير استعلاء أحد على الآخر وبدون التترس مسبقًا خلف نتائج محسومة وغير قابلة للنقاش، نجد المناظرة (بالمعنى الآخر) قائمة على محاولة إثبات كل طرف صحة رأيه ووجهة نظره والعمل على هدم رأي الآخر ـ وأحيانًا شخصه ـ حتى ولو كان فيه بعض حق أو صحة.

وتكثر صور مصادرة الحق لحساب الخوارجي وحده والوصاية والحجر على الرأي الآخر، ويدخل في ذلك: ضرورة الوصاية على المتلقين، ومراقبتهم،

(١) يقول ابن منظور في (لسان العرب)، مادة (ن ظ ر): «والمُنَاظَرَة: أَن تُناظِرَ أَخاك في أَمر إِذا نَظَرْتُما فيه معاً كيف تأْتيانه"، ثم يقول: "والتَّناظُرُ: التَّراوُضُ في الأَمر. ونَظِيرُك: الذي يُراوِضُك وتُناظِرُه، وناظَرَه: من المُناظَرَة. والنَّظِيرُ: المِثْلُ، وقيل: المثل في كل شيء. وفلان نَظِيرُك، أَي: مِثْلُك؛ لأَنه إِذا نَظَر إِليهما النَّاظِرُ رآهما سواءً. الجوهري: ونَظِيرُ الشيء مِثْلُه. وحكى أَبو عبيدة: النَّظْر والنَّظِير بمعنىً مِثل النِّدِّ والنَّدِيد»، ويقول الجرجاني في كتابه (التعريفات)، ص٢٩٨: «المناظرة ـ لغة ـ من النظير ،أو من النظر بالبصيرة، واصطلاحًا هي: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب».

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

ومهر كل فكرة أو رأي أو كتاب أو رسالة بختم جواز مرور للمتلقين.

*** الإحساس بالاضطهاد والظلم:**

وهذا واضح في ادعاء ذي الخويصرة على رسول الله ﷺ ومطالبته له بالعدل، كما إنه واضح في دعوى الذين خرجوا على عثمان (رضي الله عنه) وثاروا عليه وقتلوه.

وكما يقال: (ليس بالظلم وحده تقوم الثورات، ولكن بالشعور بالظلم)، فوجود الظلم في الواقع ليس هو المعول في هيجان هذا الإحساس، فسواء أُوجِد الظلم أم لم يوجد فإن الذي ينتابه هذا الإحساس يكون أقرب إلى الثورة والتمرد والرغبة في الانتقام.

*** قلة التجربة والخبرة، إضافة إلى التوهج الحماسي غير المنضبط:**

فعن علي (رضي الله عنه)، عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي سبق ذكره: «... يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام...»[1]، أي: صغار السن، ضعاف العقول[2]، فحداثة السن تشير إلى قلة التجربة والخبرة، إضافة إلى التوهج الحماسي غير المنضبط التي تميز الشباب غالبًا، وعندما يكون الشباب بلا تعقل فإنهم يُعدون طاقة مندفعة بلا تَحَكُّم.

ونتيجة حداثة السن وضعف العقل مع العجب بما هم عليه الذي بيناه سابقًا، فإنه يغلب عليهم عدم توفيقهم في تقدير العواقب، وإذا أضفنا إلى ذلك: الإحساس بالظلم والهضم الذي سبق ذكره، فإنه يسهل استثارتهم واندفاعهم وتسرعهم، وهنا تَرِد إمكانية استغلال هذه الطاقة المندفعة من أي طرف يُحسِن فهم تركيبتهم النفسية، فيوجه طاقتهم المتأججة وحماسهم المشتعل ـ بحسن

(١) أخرجه: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأحمد بن حنبل، والبيهقي.
(٢) انظر: فتح الباري، جـ٦، ص٦١٩، وعون المعبود، جـ١٣، ص٨٠ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

نية أو بسوء نية ـ وجهة قد لا تتفق مع المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، والخروج على عثمان وقتله خير مثال على هذه الاحتمالية المتكررة في تاريخنا وواقعنا.

ونشير هنا إلى أن ضعف العقل ليس معناه ضعف الذكاء، فضعف العقل بمعنى الطيش والتهور وعدم ضبط النفس وتقدير العواقب[1]، حتى وإن كان المتصف بها ذكيّاً ألمعيّاً يفهم المبهمات وذا بديهة حاضرة.

*** الإقصاء:**

وإذا استحضرنا صفة إحسان ظن الخوارجي في نفسه والعُجب بها، واعتقاده في نفسه الطهر التام وافتراضه ذلك في كل شخص موافق له، واستحضرنا مع ذلك سنة وجود أنواع ودرجات واختلافات بين البشر، وكَوْن النفس الإنسانية تتسم بالضعف والنقص والقصور الذاتي، وأنه من الطبيعي أن يغلبها أحيانًا ضعفُها وقصورها وهواها، وأن وقوع الخطأ من الإنسان أمر فطري لا ينفك عنه، وأن هذا الدين متين ولا يشاده أحد إلا غلبه... إذا استحضرنا كل ذلك أدركنا أن ما ينشده الخوارجيون من كمال وطهر تام لن يتحقق في عالم الواقع؛ لذلك فإن المفرزة الخوارجية ستظل تعمل على إقصاء من (يسقطون) بضعفهم إلى الدائرة (السوداء)؛ مما يؤدي إلى تفتيت الكيان الذي ينتمون إليه وانهياره في آخر الأمر، أو على الأقل: ضعفه وتصدعه،

(١) جاء في لسان العرب (مادة: ع ق ل): قال «ابن الأَنباري: رَجُل عاقِلٌ وهو الجامع لأَمره ورأْيه، مأْخوذ من عَقَلْتُ البَعِيرَ إِذا جَمَعْتَ قوائمه، وقيل: العاقِلُ الذي يَحْبِس نفسه ويَرُدُّها عن هواها، أُخِذَ من قولهم قد اعْتُقِل لسانُه إِذا حُبِسَ ومُنِعَ الكَلامَ (...) والعَقْلُ: التَّثَبُّت في الأُمور. والعَقْلُ: القَلْبُ، والقَلْبُ العَقْلُ، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلاً لأَنه يَعْقِل صاحبَه عن التَّوَرُّط في المَهالِك، أَي: يَحْبِسه»، وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: «عقل: العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك: العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل».

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

وهي المرحلة التالية للإقصاء ـ وهو ما سأتحدث عنه لاحقًا ـ.

وبالإقصاء المستمر سيغدو الخوارجيون حالة نخبوية دائمة، منبتة الصلة والتواصل عن الجماهير (أو: الأمة) في مختلف الأصعدة.

ويكون الإقصاء بمنابذة المجتمع أو الجماعة أو المخالِف عمومًا والوصول بالنبذ إلى الحد الأقصى المتاح فكريّاً وعمليّاً:

فقد تكون وسيلته التكفير إذا كان الخوارجي ممن يحمل هذا الفكر، أو التبديع والتضليل إذا كان ممن لا يسمح فكره بالتكفير، أو التجديف والهرطقة إذا كان نصرانيّاً متعصبًا، أو التخوين والعمالة إذا كان علمانيّاً قوميّاً أو يساريّاً، أو الرمي بالتخلف والجمود والرجعية إذا كان علمانيّاً ليبراليّاً... إلى آخر قائمة أدوات الإقصاء الفكرية المنتشرة في مجتمعاتنا، وإذا لم يفلح التلويح بسلاح التكفير أو التبديع والتضليل أو التخوين والعمالة...، فهناك إجراءات فعلية يمكن اتخاذها، كتحريم أو منع: الطبع والنشر والبيع والشراء والتداول والترويج لهذه الفكرة أو هذا الرأي، وملاومة من يقع في ذلك أو يتجاهله أو يسكت عنه.

هذا في عالم الفكر والرأي، أما في عالم الفعل والحركة فيضع الخوارجيون أهمية قصوى لتقسيم الناس إلى (معسكر خير) و(معسكر شر)، كما يشيع بينهم المبدأ الشهير: (من ليس معنا فهو ضدنا)، حد واحد فاصل يتقلص فيه طرفا العالم، ولهم في ذلك وسائلهم الشائعة التي تشمل: التجنب والتجاهل، والمخاصمة والمقاطعة، والتهديد بقطع الأرزاق، والمحاصرة، والتشريد.. والطريق مفتوح لتطور الأمور من النفي المعنوي للآخر إلى النفي الحسي له، لتصل الأمور إلى الحبس أو النفي أو المقاتلة، وقد سجل القرآن هذه الثلاث الأخيرة عندما ضاق كفار قريش بدعوة الرسول ﷺ ذرعًا وأعيتهم مقارعة الحُجة بالحُجة، فخرجوا من مضمار المحاورة والمجادلة إلى مضمار القوة والقهر ـ وهذا من أبرز السلوكيات الخوارجية ـ: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ**

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، و﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ تعني: يحبسونك ويسجنونك ويُوثِقونك ـ كما قال أهل التفسير ـ، وهو ما يقودنا إلى الصفة التالية.

* **التفتيت:**

تتفاعل العناصر الماضية لتغذي عقدة الاستشهاد ـ المعنوي أو الحسي ـ النفسية في وجدان الخوارجيين، مما يدفعهم إلى التمسك بما هم عليه، والدفاع عنه بشتى السبل، والاستعداد لبذل مزيد من التضحية من أجله، مع شعور بالرضى عن النفس.

يدعم ذلك: أنهم لا ينقصهم الاعتداد بصلاحهم وصحة ما هم عليه، وتزكية أنفسهم والعجب بها، فكما مر ذكره في الخوارج: أنه كان لهم اجتهاد في العبادة (يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم..)، وكانوا يعرفون ذلك في أنفسهم ويعجبون بذلك، أضف إلى ذلك: أنه لا ينقصهم الحماس المفرط لما هم عليه، فمن المعروف عنهم استعدادهم للتضحية بأعز ما يملكون في سبيل دفاعهم عن مبدئهم ومعتقدهم، حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم: الشراة، اقتباسًا من قوله (تعالى): ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وتكون النتيجة المنطقية النهائية لتتابع هذه السلسلة من التفاعلات: المصادمة و(المقاتلة)، وإلى ذلك أشارت بعض روايات حديث ذي الخويصرة[١]: «... يقتلون أهل الإسلام ويَدَعون أهل الأوثان..»، ونذكِّر هنا بما سبق أن قلناه: إن ذلك السلوك من الخوارج راجع إلى تفاعل الصفات النفسية التي ذكرناها مع بعض الظروف السياسية والاجتماعية، وليس إلى المعتقد الفكري ـ وإن

(١) أخرجها: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وأحمد بن حنبل، والبيهقي.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

كان من الممكن أن يلعب دوراً محفزاً لهذه الصفات في هذه الظروف ـ. . وإذا اعتبرنا ـ جدلاً ـ أن العامل الفكري ذو أهمية كبيرة في انتهاج هذا السلوك فإنه يثار هنا تساؤل مهم، وهو: إذا كان التكفير هو داعي مقاتلة الخوارج لأهل الإسلام فلماذا (يَدَعون أهل الأوثان) رغم وجود المقتضي نفسه؟، لماذا يعطون (أهل الإسلام) الأولوية في الإفناء والتصفية؟.

ينبغي أن نلاحظ أولاً أن (أهل الإسلام) هنا هم أهل الإسلام على الحقيقة في كلام رسول الله ﷺ وليس في معتقد الخوارج، وبتأمل هذا السلوك حسب فهم التركيبة النفسية للخوارجيين فإنه يظهر أن الداعي الحقيقي لقتل أهل الإسلام أنهم (أهل إسلام)!، وداعي ترك أهل الأوثان أنهم (أهل أوثان)!، بمعنى: أن أهل الأوثان يقعون في منطقة (الأسود ـ الرجس التام)، وهذا واضح لا إشكال فيه، والخوارجيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم في منطقة (الأبيض ـ الطهر التام)، أما (أهل الإسلام) فإنهم يقفون من وجهة نظرهم في (المنطقة الرمادية)، وبوقوفهم هذا الموقف فإنهم يسببون لهم حالة من القلق الناشئ عن اختلال المنظومة النفسية والفكرية التي يعيشونها، فالنفسية الخوارجية ـ كما عرضناها ـ تحرص على جلاء الحق حسب تصورها، وتحرص على نفي كل الصور الطيفية المحتملة للحقائق عدا الأبيض والأسود الذي تتصوره، ومن ثم: يريحها أن ترى النقاء الاعتقادي ممثلاً في الواقع. . كل ذلك يحتم تقديم محاربة الصور المشوهة للحق على محاربة الصور (النقية) للباطل، ولذا: فهم يحاربون أهل الإسلام ويَدَعون أهل الأوثان، فمن دعواهم: أن الذين يواجهونهم أشَرّ وأخطر على الإسلام من أهل الأوثان ومن اليهود والنصارى[1].

(١) سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (تعالى): «عن رجل يفضل اليهود والنصارى على الرافضة؟. فأجاب: الحمد لله، كل من كان مؤمنًا بما جاء به محمد ﷺ فهو خير من كل من كفر به؛ وإن كان في المؤمن بذلك نوع من البدعة سواء كانت بدعة الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية أو غيرهم؛ فإن اليهود والنصارى كفار كفرًا معلومًا بالاضطرار من دين الإسلام،=

حُمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

كما إن (أهل الإسلام) بموقفهم هذا يشوهون ـ من وجهة نظر الخوارجيين ـ (الإسلام الحقيقي ـ المنطقة البيضاء) أمام أصحاب المنطقة السوداء الذين هم أهل للدعوة عندهم، ولأن (المنطقة البيضاء) حكر عليهم وحدهم فإنهم لا يرضون بتشويهها، ولا يهدأ لهم بال إلا بانحياز أهل (المنطقة الرمادية) إلى إحدى المنطقتين المتباينتين (أبيض أو أسود)، وعندما يصر (أهل الإسلام) على عدم الانتقال إلى دائرة (الأبيض)، أي: عدم قبول الاجتهادات والتفسيرات الخوارجية، فإنهم يكونون أولى بالقتل من أهل الأوثان؛ لأنهم ـ حينئذ ـ يكون وصلهم من العلم والحجة ما لم يصل لأهل الأوثان، وفي هذا السلوك نرى أن (الفكر) لعب دور العامل المحفز ـ بصورة أوضح ـ في تفاعل العوامل النفسية مع الظروف الاجتماعية والسياسية.

وإضافة إلى هذه الصورة الواضحة الفجة لتفتيت اللُّحمة الإسلامية: نلاحظ في واقعنا صورة أخرى من صور (يقاتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان) عُرف بها بعض الخوارجيين المعاصرين؛ وهي: الحمل على بعض أهل الدعوة إلى الإسلام والمنافحة عنه، ومهاجمتهم ـ بدعوى التحذير من بدعهم وانحرافاتهم!ـ، مع إساءة الظن بهم وعدم حمل كلامهم المشتبه المجمل على كلامهم الواضح المفصل، ثم قتلهم ـ أو اغتيالهم ـ معنوياً بكل السبل وبكامل الطاقة والحماسة، وفي الوقت نفسه: ترك أهل الزيغ والضلال والشرك والعلمانيين الواضحين، ومسالمتهم، بل وأحيانًا: تملقهم ومد جسور التواصل معهم.. ولو توازنوا فذكروا لكل فريق ما لهم وما عليهم بإنصاف وتجرد لكان لكلامهم نصيب من المصداقية، ولصدقنا أنهم بالفعل يريدون التحذير من البدع والانحرافات ـ بما فيها: الانحراف الأكبر ـ، ولكن الأمر غير ذلك.

= والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق للرسول ﷺ لا مخالف له لم يكن كافرًا به؛ ولو قدر أنه يكفر فليس كفره مثل كفر من كذب الرسول ﷺ» (مجموع الفتاوى، جـ٣٥، ص٢٠١).

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

* ويثار تساؤل مهم آخر، وهو: لماذا كان القتل هو الحل عند الخوارجيين في التعامل مع (أهل الإسلام)؟ لماذا لم يكن دعوتهم إلى ما يعتقدونه هو سبيل التغيير عندهم؟! ولماذا تحول (الأبيض والأسود) في الفكر إلى (أبيض وأسود وأحمر) في السلوك والفعل؟.

ترتبط الإجابة على هذا التساؤل إلى حد كبير بمعرفة صفات الخوارجيين النفسية، وعلى رأسها ما ذكرناه سابقًا من شدتهم وحدتهم ونظرتهم النرجسية إلى أنفسهم، فدعوة الآخرين تحتاج إلى قبول نفسي لهم وعدم التعالي عليهم ورغبة في رحمتهم والترفق بهم، وهذا ما يتنافى مع العجب بالنفس واستحقار الآخرين، كما يتنافى مع الشدة والحدة، وفي هذا المقام يُذكر امتنان الله (سبحانه وتعالى) على رسوله ﷺ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [**آل عمران**: ١٥٩].

كما إن الدعوة تحتاج نوعًا من الحوار ـ الصامت (المتخيَّل والمُفتَرَض مع الطرف الآخر)، أو الناطق ـ بين الداعي والمدعو، وهذا الحوار لا يتأتّى إلا باستعداد لتبادل الآراء والأفكار؛ للوقوف على نقطة الانطلاق الصحيحة للحوار، وهو ما لا يناسب الشخصية الخوارجية التي ضربت على نفسها وعقلها إطارًا محكمًا من الطهر التام المزعوم واحتكار الحقيقة المطلقة؛ لذلك: فالأقرب إلى نمط الشخصية الخوارجية عندما تعمد هي إلى الاحتكاك بالآخرين ـ خاصة أصحاب (المنطقة الرمادية) ـ أن يكون هذا الاحتكاك حوارًا بالسيف والعصا؛ لإجبار الآخرين على قبول ما لا يقبل النقاش والمساومة ـ في نظرهم ـ أو استئصالهم ومسحهم من الوجود.

وباختصار: فإن الشخصية الخوارجية لا يناسبها أن تكون حاملة دعوة ـ حتى ولو توهمت ممارسة الدعوة ـ، ولكن يناسبها أن تكون محرضة على ثورة، وإذا كانت في موقع السلطة فإنها تصبغ هذه السلطة بالصبغة الاستبدادية والتسلطية.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

والحقيقة أن متلازمة ادعاء الطهر والدعوة إلى التطهير بالتصفية الجسدية بقتل الآخر أو نفيه.. متلازمة قديمة لم يبتدعها الخوارج التاريخيون أو الخوارجيون المعاصرون، بل هي وسيلة كل مفلس عندما تصل حجته إلى الطريق المسدود ويعجز عن مواصلة الحوار والمجادلة في مناخ طبيعي، فيدعي الطهر التام ويمارس الوصاية على غيره بدعوى الحرص على المصلحة، ويُعَد فرعون من أشهر المستخدمين لتلك الوسيلة عندما طلب (الإذن والسماح!!) ﴿.. **ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾ [**غافر**: ٢٦]، وهذا الأسلوب هو الورقة الأخيرة التي يرفعها رافضو الحق تجاه حملة الدعوة ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾ [**إبراهيم**: ١٣].

نعود ونقول: إن الشخصية الخوارجية تحمل عوامل قوة ـ أشارت إليها الأحاديث ـ، ولكنها قوة مفرطة وصلدة و(جافة) قد تسبب التصلب والتشقق الاجتماعي، وهذا هو الأثر الخطير والجرح الذي لم يندمل الذي أحدثه الخوارج في تاريخ الأمة الإسلامية، وتقود هذه القوة أيضًا إلى التصدع الداخلي للكيان الذي تنتمي إليه، ومن ثم: التآكل الذاتي الذي ينذر بالانهيار أو قريب منه، وهذا تقريبًا ما حدث للخوارج (التاريخيين) أنفسهم.

وفي حين أن هذا هو مآل المنهجية الخوارجية (التفتيت والفُرقة)، فإنا نجد أن منهجية أهل السنة وشعارهم هو (الجماعة)، أي الحرص والعمل على التجميع ولَمِّ الشمل وعدم الفُرقة، فهم أهل (سنة) و(جماعة)، فـ (السنة) منهجيتهم العلمية، و(الجماعة) منهجيتهم الحركية والسياسية، (سنة) تؤدي إلى (الجماعة)، و(جماعة) تقوم على (السنة)، وهذا ـ مجتمِعًا ـ ما ينبغي أن نحرص عليه وننشره في أوساطنا.

* وننبه هنا إلى التباس قد يقع عند بعض الناس، وهو: تشابه السلوك الخوارجي في التفتيت (الحسي، أو المعنوي) بسلوك آخر مدحه رسول الله ﷺ في

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

قوله: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر»[1]، وفي قوله: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[2].

والحقيقة أن ذلك ليس صورة من صور التفتيت، بل صورة من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه الشرعية ـ على جميع المستويات ـ ليس سلوكًا خوارجيـاً، بل هو من الدين، ومن أسباب خيرية هذه الأمة، ودعامة من دعامات المجتمع وعوامل قوته وتماسكه وليس تصديعه وتفتيته كما في سلوك الخوارجيين السابق إيضاحه، وهذا الرجل الذي يقوم بهذا الدور ـ وهو لم يستخدم آلية تصديع وشقاق ـ إنما يمثل الأمة في القيام بدورها الرقابي على السلطة؛ مما يحفظهما جميعًا من الانحراف والفساد، وهذا ما يدل عليه الحديثان السابقان وحديث: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟، قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[3]، بينما السلوك الخوارجي الحقيقي في هذا الموقف هو سلوك السلطان الذي خرج عن هدي الإسلام في الحكم بالشورى والعدل بين الرعية، والذي قابل النصيحة بالقهر والمصادرة، وقابل الكلمة المجردة بالسيف المسلط.

* **بقيت صفة أخرى ـ أو بالأحرى: علامة ـ** ثابتة في حق الخوارج، جاءت في زيادة لبعض الروايات[4]، وهي قوله ﷺ: «... سيماهم التحالق ـ أو

(١) أخرجه: أصحاب السنن، والحاكم، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع، ح/ ١١٠٠)، والشيخ شعيب الأرناؤوط (تحقيق المسند، ح/ ١٨٨٥٠).

(٢) أخرجه: الطبراني، والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، جـ١، ص٧١٦.

(٣) أخرجه: مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل، عن تميم الداري (رضي الله عنه).

(٤) أخرجها: مسلم والحاكم، وأبو داود، وابن ماجه، وانظر الروايات الأخرى التي ذكرها: الإمام أحمد بن حنبل، ح/ ١٣٠٥٩، جـ٣، ص١٩٧، والحاكم في المستدرك، ح/٢٦٤٨، جـ٢، ص١٦٠.

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

التحليق ـ»، أي: كثرة حلاقة رؤوسهم ومبالغتهم في ذلك، وجاء في صفة ذي الخويصرة أنه: «محلوق» (وذلك في الرواية التي أخرجها البخاري ومسلم، عن أبي سعيد الخدري).

وقد أورد العلماء عدة أوجه للمقصود بالتحليق، جمعها الحافظ ابن حجر (رحمه الله)، ناقلاً عن الكرماني، فقال: «قال الكرماني: فيه إشكال، وهو: أنه يلزم من وجود العلامة وجود ذي العلامة، فيستلزم أن كل من كان محلوق الرأس فهو من الخوارج، والأمر بخلاف ذلك اتفاقًا، ثم أجاب بأن السلف كانوا لا يحلقون رؤوسهم إلا للنسك أو في الحاجة، والخوارج اتخذوه دَيْدَنًا فصار شعارًا لهم وعُرِفوا به، قال: ويحتمل أن يراد به: حلق الرأس واللحية وجميع شعورهم، وأن يراد به: الإفراط في القتل، والمبالغة في المخالفة في أمر الديانة. قلت: الأول باطل؛ لأنه لم يقع من الخوارج، والثاني محتمل، لكن طرق الحديث المتكاثرة كالصريحة في إرادة حلق الرأس، والثالث كالثاني، والله أعلم»[1].

وقد فكرت مليّاً فيما وراء هذه الصفة ـ أو العلامة ـ باحثًا عن تفسير مقنع للدافع إليها، ولم أهتد لشيء، ولكني لاحظت ملاحظة قد تبدو غريبة، وهي أن الجماعات اليمينية المعاصرة الرافضة (أو الخوارجية) على المجتمع في الغرب ـ وهي أيضًا تتخذ العنف منهجًا ضد مخالفيها ـ سيماهم التحالق أيضًا، حتى إنهم يُعرفون هناك بـ (جماعات حليقي الرؤوس)..

فهل توجد علاقة بين النفسية الخوارجية الرافضة للمجتمع عمومًا وبين (التحالق)؟، أم إن التحالق إشارة منهم لرفضهم التنعم والرفاهة، بما يتناسب مع طباعهم الخشنة وشخصيتهم الحادة؟، أم إنه (التحالق) مجرد وسيلة تمايز وانفصال عن بقية المجتمع للتعبير عن الاحتجاج والرفض، وقد تتغير هذه الوسيلة باختلاف الأزمان والمجتمعات؟.. أسئلة مطروحة للنظر!.

(١) فتح الباري، جـ١٣، ص٥٣٧ .

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

مقترحات للمعالجة:

إن الشخصية الخوارجية شخصية ذات نفسية مركبة، ولكن أكبر ظواهرها تتمثل في صفات الإنسان الخشن والشخصية المعارضة العنيدة.

والذي أراه: أنه لمعالجة هذا الخلل في الشخصية ينبغي على البرامج الدعوية والتربوية التركيز على: غرس حقيقة التوحيد وليس فقط تعلم أحكامه، وتحقيق معاني الشعائر وليس فقط إتمام رسومها، وتزكية البواطن وليس فقط الاستكثار من الأعمال الظاهرة، وزرع المراقبة الذاتية والداخلية وليس فقط الزجر بالوازع الخارجي، واستحضار مقاصد الشريعة وكلياتها وليس فقط معرفة جزئياتها، والتفقه والتدبر وليس فقط الاستظهار والحفظ، وتصحيح النظرة إلى الآخرين وزرع إحسان الظن بهم وتلمس الأعذار الشرعية لهم ـ ما داموا أهلاً لذلك ـ وليس فقط تصنيفهم والحكم عليهم، وتوسعة الأفق بما يولد استشعار وجود التنوع والاختلاف ويضبطه بضوابطه الصحيحة وليس فقط حسم الخلاف وتبني الرأي الصحيح.

أما عند التعامل المباشر مع هذه الشخصية، فإن محاولة المعالجة قبل تفاقم الأمور بوصولها إلى الصدام المباشر تعد أقرب الطرق للمعالجة، وهذا ما يشير إليه سلوك الرسول ﷺ معهم، وهو الذي بوب له البخاري بقوله: «باب من ترك قتال الخوارج للتأليف ولئلا ينفر الناس عنه».

وحتى بعد الصدام فإن معالجة جذور الخلل تظل دومًا أنجع من المحاولات المتكررة للقضاء على نتائجه، وتجربة ابن عباس (رضي الله عنهما) في محاورته الشهيرة مع الخوارج الحرورية، التي رجع بعدها ثلث الجيش الخارجي المقاتل[1]، وتجربة عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) عندما راسل قائد الخوارج في عهده، وعقدت إثر ذلك المناظراتُ بين أهل السنة والخوارج، «ولذا: لم

(١) انظر: السنن الكبرى، للبيهقي، ٨٥٧٥، جـ٥، ص١٦٥ .

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

تقم لهم قائمة في خلافته»[1]. . . هي تجارب تثبت أن المحاورة المخلصة والجادة التي يكون الحق حاديها ـ من الطرفين ـ تأتي بثمار لا تأتي بها مواجهة مسلحة مع أناس يتغنون بالموت ولا ينقصهم الاستعداد لدفع حياتهم ثمنًا لمبادئهم، بل يعدون أنفسهم ـ وحدهم ـ الشراة.

وفي كل ما سبق إشارات لمنهج التعامل المباشر مع هذه الشخصية، ومن هذه الإشارات ومن معرفة نمط الشخصية الخوارجية ودراستها دراسة دقيقة هادئة. . نستطيع تلخيص بعض التوجيهات للتعامل مع الشخص ذي النفسية الخوارجية فيما يأتي:

* الإحسان إليه والعفو عنه والتلطف معه ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [**فصلت**: ٣٤].

* كسب ثقته بتعريفه بمواقفنا الإيجابية معه والتأكيد على الاستعداد التام للتعاون معه.

* الصبر في التعامل معه، مع إفهامه أن احترام الإنسان يكون بقدر احترامه للآخرين.

* مجادلته بالتي هي أحسن، من خلال:

● حثه وتشجيعه على الحديث وإخراج مكنوناته، وذلك بإتقان فن الاستماع والتواصل معه[2].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، جـ٩، ص١٨٧ .

(٢) ولتحقيق هذه الغاية يمكن استخدام واحد أو أكثر من الأساليب الآتية التي تهدف لتشجيع الآخرين على الحديث:

* **أسلوب الأسئلة المحفزة:** وهي الأسئلة التي تتطلب وصفاً وشرحاً وتفسيراً ورأياً، ولا يتوقع الإجابة عليها بـ (نعم) أو (لا)، فعندما تولد هذه الأسئلة استجابات سردية تحتاج لتحليل ووصف، فإنها تجبر الشخص المسؤول على التعبير عن تفكيره ـ وليس فقط عن موقفه ـ=

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

• الإصغاء إليه جيدًا والتعرف على وجهة نظره، مع ضبط الأعصاب والمحافظة على الهدوء حتى إذا استخدم عبارات أو كلمات مستفزة.

• عدم إثارته واستنفاره، بل إيجاد جو من الود والملاطفة.

• الحزم عند تقديم وجهة نظرك؛ لأنه ينبهر عادة بالأقوياء والواثقين من أنفسهم حتى في الفكر.

• إيضاح أن وجهة نظرك وأفكارك ليست رأيك المجرد ولكنها مدعمة بالأدلة والشواهد المناسبة، مع تقديمها له واضحة ومحددة.

=من القضية المطروحة، وهذا مفيد للوصول إلى موطن الخلل الحقيقي داخله.

* **أسلوب عكس الأسئلة:** وهو أسلوب مفيد عند إطلاق الطرف الآخر أسئلة تحمل نوعًا من الاتهام، وبأسلوب عكس الأسئلة ينتقل المسؤول من موقف الدفاع إلى موقف وضع السائل في خندق المسؤولية المشتركة، فيبدأ بالشرح بدلاً من الاتهام، وحين يتحدث الطرف الآخر ويشرح (بدلاً من أن يتهم) ستتاح فرصة أكبر للاستماع بموضوعية للحقائق واستخراجها منه، ولكن يجب مراعاة أن تكون الأسئلة العكسية غير تقييمية، بل استفسارية، وأن تكون اللهجة هادئة، وباختصار: يساعد أسلوب عكس الأسئلة على إلقاء الكرة في ملعب الآخر، ولكن بإيجابية.

* **أسلوب الاستماع التأملي، أو الاستماع النشط:** وهي طريقة لتوضيح أنك مهتم بالحوار، ولكنك في الوقت نفسه تسمح للطرف الآخر أن يسيطر على الحوار ويعبر عن رأيه، ويمكن في هذا الأسلوب أن تعلق كل ٩٠ ثانية إلى دقيقتين تعليقاً موجزًا يعبر عن اهتمامك وطلبك المزيد من حديثه، مثل أن تعلق قائلاً: جميل...، رائع...، ماذا قلت؟ (تطلب منه التكرار)...، لم أسمع عن شيء مثل هذا من قبل...، بمعنى؟ (تطلب تلخيصًا، أو شرحًا موجزًا)....

* **الأسلوب الارتدادي:** ويتطلب هذا الأسلوب تكرار آخر كلمة قالها الشخص الآخر، ولكن بعد التأكد من أنه لم يتوقف ليأخذ نَفَسَه، فيتولد رد فعل لا إرادي يوجِد دافعاً نفسيّاً لشرح المزيد.

مقتبس بتصرف عن: (الأساليب الأربعة لجعل الشخص الآخر يتحدث)، ملف من موقع (مركز التميز للمنظمات غير الحكومية)، تجده على الرابط:

http://www.ngoce.org/content/wt.doc

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

- عدم إعطائه الفرصة للمقاطعة وتشتيت اتجاهات الحوار أو التشويش على الأفكار؛ لإعطائه هو نفسه فرصة للتركيز والتأمل في وجهة النظر الأخرى، ومن العوامل المساعدة على ذلك: إعطاؤه الفرصة كاملة للتعبير عن نفسه عندما يكون الحديث له، وتذكيره بذلك إذا احتاج الأمر.
- تقديم الأفكار الجديدة عليه أو الرافض لها بالتدريج.
- استخدام معلوماته وأفكاره هو ـ ما أمكن ـ لتأييد وجهة نظرك ولو جزئياً.
- استعمال أسلوب (نعم.. ولكن)؛ لامتصاص طاقة خصومته، وفى الوقت نفسه: إيصال وجهة نظرك له.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

حمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

خاتمة (ونتائج البحث)

إن عدم التفاتنا إلى بواعث السلوك وآثار الأفكار والعلاقة المتبادلة بينهما وبين الأفكار نفسها يؤدي بنا إلى قصور في تحليل الظواهر ينتج عنه خطأ في العلاج، وهذا ما نرى أثره في حياتنا جراء إهمال معالجة آثار فكر المرجئة وصفات الخوارج وما خلفوه في حياتنا، ففكر الخوارج وسلوكيات الخوارجيين لا تقوم عليها أمة، وفكر الإرجاء إن انتشر في أمة فلن تكون هذه الأمة مميَّزَة ولا فاعلة.. المرجئة لا يبنون، والخوارج يهدمون ـ بمهارة وقوة ـ أي بناء.

*****

ونستطيع تلخيص أهم نتائج هذا البحث فيما يأتي:

* تنتشر آفة (التلفظ بالقول دون إرادة العمل المقتضي له) بين أفراد مجتمعاتنا المعاصرة في معظم الشرائح الاجتماعية وتتمثل في أكثر من مظهر.

* تتضافر الشواهد في الكتاب والسنة على ذم هذه الآفة، كما تتضافر الشواهد في سلوك الرعيل الأول من المسلمين على خلوهم من هذه الآفة وفهمهم الرائد لدور الكلمة والمقصد من ورائها والتبعات المطلوبة منهم بعدها.

* وليست هذه الخاصية في الجدية وارتباط القول بالعمل مقصورة على المسلمين الأوائل، ولكننا نجدها في كل مجتمع جاد يسعى لتحقيق هدف ـ أيّاً كان ـ ويحترم ذاته، كما إن مشركي العرب الأوائل لم يكونوا بهذا الانفصام، لذا: كانوا غالبًا صادقين في الكفر وصادقين بعد الإيمان، وكانوا أقوياء في كفرهم وأشداء بعد إيمانهم، كانوا واضحين مع أنفسهم ومع الآخرين، كانوا جادين يعلمون تمامًا أن الكلمة لا تُطلب إلا لآثار ومقتضيات.

* فالمجتمعات الجادة تولي أهمية لأثر الكلمة، وهذا ما نراه أيضًا في

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

المجتمعات المعاصرة ـ حتى غير المسلمة ـ، وحتى عندما يكون الكلام هو مجال العمل فإن هذه المجتمعات تخضعها حينئذ لأهداف ومقاصد وتخطيط؛ لبلوغ هدف هذا العمل وتحقيق أقصى فاعلية من ورائه، وغالبًا ما توظف الكلمات لتحقيق مهام عملية.

* من أهم هذه العوامل التي أدت إلى انتشار آفة (التلفظ بالقول دون إرادة العمل المقتضي له) في مجتمعاتنا: انتشار جرثومة مذهب الإرجاء الذي يفصل العمل عن القول ويجعله خاويًا من مضمونه الحقيقي، ولكنه هنا ليس متمثلاً في عقيدة مذهبية، بل في سلوكيات حياتية.

* وقد أثر ذلك في نمط شخصية الأفراد، فأصبح كثير منهم يحس بأن مسؤوليته الشخصية تنتهي عند خروج كلمات من فمه، حتى ولو كانت هذه الكلمات فارغة المدلول أو غلب على ظنه عدم تحقيقها في الواقع، رغم قدرته على بذل جهد لخروجها إلى عالم الفعل، فهو يرى أنه بخروج كلماته قد أدى المطلوب منه وأراح ضميره.

* وعندما انفصل القول عن العمل، وأصبحت الكلمات هي ميدان العمل، كثر إنتاج أمتنا من الكلام وقل عملها في الدين والدنيا، وكثرت صور النفاق السياسي والنفاق الاجتماعي، حتى تحولت أمة العرب إلى (ظاهرة صوتية) على حد تعبير أحد أبناء هذه الظاهرة.

* وقد استغل الاستعمار القديم والحديث وأذنابُه أثر هذا الفكر لترسيخ وجوده وتنفيذ مخططاته بمكر ودهاء، وفي الوقت نفسه: بنعومة وتجنب المصادمة ـ أو تقليلها ـ.

* والحاصل: أن فكر الإرجاء والقيم المنبثقة منه يؤديان إلى ليونة ومطاطية في المنطق والسلوك، تقودان إلى ميوعة في الشخصية (الحضارية) للأفراد،

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

تصل إلى حد التيه في الهدف والفقر في العمل، والذوبان في (الآخر)، وهذا ما يجعلهم عرضة للانقياد لهذا الآخر والخضوع له، من غير إحساس بخطره أو حقيقة ما يقوم به من سلخهم من دينهم وسلخ بلادهم من خيراتها.

* إصلاح هذا الخلل في الشخصية المصابة به ليس بالمستحيل إذا تم التنبه لوجوده وتوجيه هذه الشخصية أو دمجها في برامج تربوية هادفة ومدروسة تهذبها وتوجه الاستعدادات الأولية الكامنة فيها إلى سلوك صالح ومفيد.

وحتى لو كانت هذه السلوكيات ناتجة عن صفات شخصية جِبِلِيَّة (موروثة) فأعتقد أنه يمكن تهذيب الشخصية التي تحمل هذه الصفات والحد من سلبياتها أو خطورتها على المجتمع.

* من أهم أسباب علاج هذا الخلل: التنبه والتنبيه إلى وجوده في الشخص والمجتمع، وتعريف الناس بحقيقته، مع وضع أيديهم على مظاهره في حياتهم، وضرب أمثلة حية توضحه وتبين أثره، وبيان خطورته، وإرجاع هذه المظاهر إلى جذورها مع بيان حقيقة الإرجاء وآثاره في المجتمع.

*****

وكما إن الأفكار تؤثر في السلوك (الفردي والجماعي)، فإن الصفات الشخصية تؤثر في الفكر والسلوك؛ فتغذي الفكر أو توجهه في مسار معين، أو توجِد الذريعة والتسويغ النفسي والفكري لسلوكيات معينة، في عملية تأثير وتأثر وتغذية متبادلة بين الصفات الشخصية والسلوك والفكر، وهذا ما حدث مع الخوارج.

* يخطئ من يظن أن الخوارج هم فقط من ينابذون إمام المسلمين الشرعي وينشقون عليه، كما في الحالة التاريخية التي حدثت قبيل نهاية العصر الراشدي، فالمعنى يتسع ليشمل صوراً كثيرة من صور الخروج، وقد استخدم

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

كثير من العلماء المعنى اللغوي لـ (الخوارج) وذكرها مطلقة أو مقيدة في وصف بعض الطوائف المنحرفة عن الشريعة أو عن حقيقة الإسلام، إضافة إلى جميع صور الشاقين عصا مجتمع المسلمين.

* كما يخطئ من يظن أن هذه الفئة لا تنفك عن تكفير المسلمين على غير أصول أهل السنة والجماعة، فالأحاديث النبوية الواردة في شأن الخوارج ربطتهم بصفات وأفعال معينة، تدل على نفسية معينة تنبثق منها أنماط سلوكية تناسبها، بغض النظر عن طبيعة الفكر الذي تحمله الشخصية الخوارجية التي تنطوي على هذه النفسية، فإذا تأملنا في السلوكيات الخوارجية نجد أنها نابعة من حالة نفسية ـ تفاعلت مع ظروف اجتماعية أو مواقف سياسية معينة ـ قبل أن تكون تعبيراً عن منظومة فكرية محددة.

* فإذا ما وعينا ذلك: شاهدنا في واقعنا بجانب الخوارج أصحاب الفكر التكفيري: الخوارجيين أصحاب الفكر الإرجائي، والخوارجيين أصحاب الفكر العلماني، والخوارجيين عديمي الفكر.. وغيرهم من أصحاب هذه النفسيات المريضة، وقد نجد بعض سلوكيات الخروج شاخصة في مفكر أو سياسي أو إداري أو معلم أو طالب علم أو تابع أو متبوع... كل بحسبه.

* يختلف وجود الصفات الخوارجية ـ كمّاً ونوعًا ـ من شخص لآخر ومن شريحة لأخرى، بحسب طبيعة المجتمع وثقافته وظروفه السياسية والاجتماعية، ولا يعني ذكرنا لبعض الجوانب الدينية في الشخصية الخوارجية أن هذه الصفات تقتصر على أصحاب التوجه الديني في واقعنا، فهم ـ مثلهم مثل غيرهم ـ قد توجد فيهم هذه الصفات وقد لا توجد، وإذا وجدت فقد تختلف نسبة وجودها من تيار لآخر ومن شخص لآخر.

* تعد صفة (جفاء الطبع والحدة والخشونة) حجر الزاوية في الشخصية الخوارجية، كما تعد أهم صفة يستقبل بها الخوارجي الأحداث ويفسرها بها،

حُمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

وأكبر مؤثر على ما يرسله في الوسط المحيط به.

* يعتقد الشخص الخوارجي أنه وحده الحريص على الحق وأنه وحده الساعي إلى الخير، فهو يعيش على وهم أنه ـ وحده ـ على (الطهر التام) وأن المخالفين له على (الرجس التام)، وهذا يؤثر في نظرته إلى نفسه، فيصعب عليه مراجعة نفسه ومعالجة أخطائه، كما يؤثر على نظرته وموقفه من الآخرين؛ فيسيء الظن بهم دائمًا حتى بدون مسوِّغ ويحتقر أعمالهم وينظر إليهم بدونية وتنقص، وهذا مما يجعله سلبيّاً تجاه الآخرين ومتقوقعًا على نفسه غالبًا، مما يصعب معه إقامة جسور تواصل مع الآخرين، كما إنه بهذه الحالة لا يصلح لحمل دعوة عالمية والتبشير بها.

* من صفات الخوارجيين: اهتمامهم بالأعمال الظاهرية، مع خلو أعمالهم الصالحة الظاهرة من مقاصدها وثمراتها، وافتقارهم ـ على المستوى التربوي ـ إلى تزكية البواطن والاهتمام بها ومطابقتها لظواهرهم من الأقوال والأفعال الحسنة، ظانين أن إتقانهم وإحكامهم لظاهر العبادات هو وحده الضمانة لقبول هذه الأعمال.

* كما يَحفَل الخوارجيون بالإحصاء والكم على حساب المعاني والكَيْف في أعمالهم الصالحة، وهذا بخلاف المنهج النبوي، الذي يشير إلى أن العبرة في العبادة ليست بمجرد الطول والقصر أو (الكَم)، بل بمقدار التأثر الداخلي من الإخبات والتبتل وإصلاح الباطن.

* ولا يعني ذلك أن نفرط في الاهتمام بالأعمال الظاهرة، ولكن المقصود: ألا تكون هذه الأعمال وحدها هي محور اهتمامنا ودعوتنا ومحل تركيزنا، وأن نحرص على أن تشتمل هذه الأعمال على دلالاتها وثمراتها الباطنة.

* يتسم تعمق الخوارجيين بزيادة التشدد في الإتيان بالمظاهر الخالية من

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الباطن المزكى، كالاهتمام بما لا طائل عملياً من ورائه والتمحور حول الجزئيات، ويؤدي بهم هذا التعمق المذموم إلى الغلو الذي قد يخرجهم عن طريق الاستقامة، كما يشيع بينهم: التحري والتدقيق في أمور صغيرة مقابل الجرأة والتهور على انتهاك حرمات كبيرة.

* والخوارجيون على المستوى الفكري: لا ينقصهم معرفة الدليل، ولكن ينقصهم صحة الاستدلال، كما إن اهتمامهم ينصب على الحفظ والاستظهار دون التأمل والفقه في الدليل وصحة الاستنباط، وهذا بخلاف ما نوه به رسول الله ﷺ.

* لكل دين أصوله وخصائصه التي تميزه عن غيره من الأديان والمناهج والأيديولوجيات، وهكذا الإسلام: يختلف عن غيره من الأديان ويتميز عن غيره من المناهج الأرضية والأيديولوجيات الوضعية، ولكن داخل الدائرة الواحدة وتحت مظلة مرجعية الإسلام وحده قد تختلف الأفهام وتتنوع الاجتهادات ويوجد الاختلاف بين المنتمين إلى هذه الدائرة وهذه المظلة، وهذا أمر طبيعي ـ أو هكذا ينبغي أن يكون ـ بين البشر، تحتمه حقيقة وجود اختلاف في الأفكار والقناعات، بل والميول والأهواء والمصالح، فالاختلاف سنة كونية بين البشر ـ مع إقرارنا أن السعي لإزالته مقصد شرعي ـ.

* هناك فرق بين ترك القناعات والعدول من الراجح إلى المرجوح في الفعل والعمل، فما دام الأمر ليس في حِل وحُرمة قاطعة أو صحة وخطأ بيِّن فمراعاة التألف والنفور من الخلاف أولى من غيره.

* لا تفرق الشخصية الخوارجية تفريقًا واضحًا صحيحًا بين الشريعة المنزلة والشريعة المؤوَّلة (الاجتهادية)، ولا بين الثوابت والمحكمات والقطعيات وبين المتغيرات والمتشابهات والظنيات، بل تعمد إلى رفع اجتهاداتها إلى درجة

حُمِّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الثابت المطلق والمحكم والقطعي، ثم تعامل مخالفها في هذه الاجتهادات على أنه خالف الثابت والقطعي والمحكم في دين الله وليس في اجتهاداتها.

* تكثر صور مصادرة الحق لحساب الخوارجي وحده والوصاية والحجر على الرأي الآخر، ويدخل في ذلك: ضرورة الوصاية على المتلقين، ومراقبتهم، ومهر كل فكرة أو رأي أو كتاب أو رسالة بختم جواز مرور للمتلقين، كما يشيع بين الأوساط الخوارجية وجود تشوه في العلاقة الحوارية بين الخوارجي ومخالفه.

* محاولة إقصاء الآخرين من أهم النتائج المتوقعة لتفاعل الصفات الخوارجية مع الأوضاع السياسية والاجتماعية المتأزمة والمحتقنة، وقد تكون وسيلة هذا الإقصاء الاتهام بـ: التكفير، أو التبديع والتضليل، أو التجديف والهرطقة، أو التخوين والعمالة، أو الرمي بالتخلف والجمود والرجعية... إلى آخر قائمة أدوات الإقصاء الفكرية المنتشرة في مجتمعاتنا.

* ويؤول تفاعل هذه الصفات مع تلك الأوضاع المتأزمة والمحتقنة إلى أقصى غاياتها، التي تتمثل في مقاتلة أهل الإسلام ـ حسيّاً ومعنويّاً ـ وموادعة أهل الأوثان، أي: تفتيت وتجزئة الكيان الاجتماعي الذي تنتمي إليه الشخصية الخوارجية، وهذا بخلاف منهجية أهل السنة الذين اتخذوا (الجماعة) شعاراً لهم، أي: الحرص والعمل على التجميع ولَمِّ الشمل وعدم الفُرقة، فهم أهل (سنة) و(جماعة)، فـ (السنة) منهجيتهم العلمية، و(الجماعة) منهجيتهم الحركية والسياسية.

* ينبغي على البرامج الدعوية والتربوية لمعالجة الصفات السلبية في الشخصية الخوارجية التركيز على: غرس حقيقة التوحيد وليس فقط تعلم أحكامه، وتحقيق معاني الشعائر وليس فقط إتمام رسومها، وتزكية البواطن

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

وليس فقط الاستكثار من الأعمال الظاهرة، وزرع المراقبة الذاتية والداخلية وليس فقط الزجر بالوازع الخارجي، واستحضار مقاصد الشريعة وكلياتها وليس فقط معرفة جزئياتها، والتفقه والتدبر وليس فقط الاستظهار والحفظ، وتصحيح النظرة إلى الآخرين وزرع إحسان الظن بهم وتلمس الأعذار الشرعية لهم ـ ما داموا أهلاً لذلك ـ وليس فقط تصنيفهم والحكم عليهم، وتوسعة الأفق بما يولد استشعار وجود التنوع والاختلاف ويضبطه بضوابطه الصحيحة وليس فقط حسم الخلاف وتبني الرأي الصحيح.

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)

الفهرس

المقدمة ٥

بين الكلمة والفعل ..... **٧ - ٢٦**

خطأ يسير وخطر عظيم ١٨

مقترحات للمعالجة ٢٤

الاتجاه المعاكس **٢٧-٩١**

أهم الصفات الخوارجية ٤٤

مقترحات للمعالجة ٨٨

خاتمة و(نتائج البحث) **٩٣-١٠٠**

حمّلت هذه المادة من موقع مركز الفتوح للمعلومات (www.alfotuh.com)